المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ مارس سنة ١٩٤٩ ١ جمادى الاولى سنة ١٣٦٨

طوفان القدم

صراع بين اللاَّهوت والعلم

إزاء علم الجيولوجيا

—١—

عقلية الجمود ونشوء التعليلات اللاهوتية

بدايات علم الجيولوجيا عند الاغارقة والرومان — موقف الكنيسة ازاء العلم — النظريات الجيولوجية عند أوالي اللاهوتيين — موقف رجال المدارس — ابتكارات المدارس العربية — نظريات أوالي رجال البروتستانت — تأثير احياء العلوم .

نقع عند فلاسفة الاغريق ، وفي زمان مبكّر ، على جراثيم من العلم الجيولوجي والحقائق الجيولوجية ، وقد نقع على ما هو أجدى من هذا وأنفع ، ونقصد بذلك جوًّا قد تنمو فيه هذه الجراثيم وتربى . انتقلت هذه الجراثيم إلى الفكر الروماني ، وانتعش جو التسمح واستمر أثره . فلم يقم من عامل يصد الفكر عن التأمل في طبقات الارض أو بقايا الأحياء التي توجد في تلك الطبقات . وفي ظل الامبراطورية الرومانية بدأ عهد مثمر من المشاهدة العامية .

وعند ما بسطت النصرانية سلطانها على العالم واحتكمت فيه ، استظل الناس بانقلاب جديد . كان موقف الكنيسة عند البداية إزاء علم الجيولوجيا وما يمت اليه من العلوم ، موقف التهاون ، بل الاحتقار والازدراء . والسبب في هذا أن المعتقد السائد كان منطوياً على أن الارض « عالم منبوذ » وانه عما قريب سوف يندثر ويتحطم . فلماذا نكب على درس حالاته ؟ ولأي سبب نفكر فيه ؟ ذلك بأن الازدراء الذي وجهه لاكتانتيوس والقديس أوغسطين إلى علم الفلك ، قد امتدَّ إلى غيره من العلوم .

غير أن جراثيم المعرفة والفكرة العلمية التي فرخت في الدنيا القديمة ، لم يتسنَّ للبلاغة ولا للمنطق أن يبدّداها ويذهبا بريحها . فانك ولاشك واقع على قليل من المشاهدات العلمية ومعترفٌ حتماً بوجودها ، بالرغم من أن كل تفكير جدّي فيها قد عصف به اللاهوت ، حتى أن القديس « يبروم » قد مضى مقتنعاً بأن تلك الصدوع والاعوجاجات التي نراها في قشرة الارض ، إنما ترجع إلى الغضب الالهي من أثر المعصية ، كما قال « ترتليان » إن الحفريات إنما هي أثر من آثار الطوفان .

* * *

ومن أجل أن تظل هذه المشاهدات وتلك الفكرات في حيز الارثوذكسية ، بدأ القديس أوغسطين في بداية القرن الخامس يبذل أقصى الجهد في سبيل أن ينشّيء من هذه الجراثيم ضرباً من العلم ، قدسيّ الطابع سليم المأخذ . وبهذه الميول وضع تعليقه الكبير على طريقة الخلق بحسب ما رويت في سفر التكوين ، كما استعان على ذلك بكتابات أخرى . ولم يلبث أن يأخذ نفسه بهذا العمل

حتى انصرف بكليته اليه انصرافاً لم يباره فيه أي أب من آباء الكنيسة من قبل. ولكن كفاياته العليا في البحث وعمق فكرته في التأمل، عامة اذا لم يتجه نحو المشاهدة الواقعية أو التفكير وفقاً لهذه المشاهدة. فان حجر الزاوية في أسلوبه التفكيري قد انحصر في عبارته المشهورة: «لا يمكن أن يقبل من شيء لا يتفق وولاية الأناجيل، لأن هذه الولاية هي ولاشك أعظم من كل كفايات العقل الانساني». وكذا توجه بفكره جميعاً إلى درس المتون المقدسة بحرفيتها، وحاول أن يجعل هذه المتون مفسّرة لظاهرات الطبيعة، بأساليب لاهوتية صرفة.

وننقل هنا شيئاً من المسائل التي أثارها وناقش فيها: "ما هو السبب في أن النجوم خلقت في اليوم الرابع؟" — "أخُلِقت الوحوش المفترسة والحيوانات السامّة قبل هبوط آدم أم بعده؟" — "إذا كانت قد خلقت قبل هبوطه، فكيف نوفق بين هذا وبين خَيْرِيَّة الله؟ وإذا كانت قد خلقت بعد هبوطه فكيف نوفق بين خلقها وبين نص كلمة الله؟ — لماذا حشرت الوحوش والطيور أمام آدم لتسمّى، ولم تحشر الأسماك والحيوانات البحرية؟ — لماذا لم يقل الخالق للنباتات كوني مثمرة وتكاثري، كما قال للحيوانات؟

***

نسجت إجابات عشوائية لهذه الأسئلة ومثيلاتها، فكانت الابتكارات التي اهتدى اليها أعظم الآباء اللاتين تفسيراً للمعرفة الدنيوية، بعد دراسة كاملة للمتون الانجيلية، وتطبيق عميق شامل للفكرة اللاهوتية. أما النتائج التي ترتبت على هذه الابتكارات فكانت ذات بال. فان أوغسطين في هذا المجال العلمي، وفي غيره، قد وجّه تيار الفكر الرئيس في غربي أوربا، سواء أكان في الكثلكة أم في البروتستانتية، قرابة ثلاثة عشر قرناً من الزمان.

في العصور التي تلت عصر أوغسطين ، اتبع العديد الأوفر من دارسي الفكر خطواته من غير مناقشة أو بحث . ولا يفوتنا أن رجلاً قوي الشكيمة مثل البابا غريغوري الأكبر قد عَني لسلطانه ، زعماء مفكرين وقادة علماء مثل سان إزيدور في القرن السابع ، والمحترم « بيده » — Bedé في القرن الثامن ، قد أسسا علمهما على مقدمات أوغسطين ، ولم يستطيعا أن يخرجا في شيء عن نتائجهما ، على الأسلوب الذي وضع أساسه وأقام قواعده .

لقد أتمّ « إزيدور » في كتابه « الاشتقاقات » — Eytmologies بما حاول أوغسطين من قبل إذ شاء أن يربط بين الخلق وبين عبارات سفر التكوين ، برباط مقنع . فلما نظر في الحفريات ، وهي بقايا المخلوقات البائدة المندفنة في باطن الارض ، ظن كما ظن « ترتيليان » من قبل ، انها من مخلفات طوفان نوح . وفي القرن التالي مضى ” بيده “ يربّب تلك المأثورات التقليدية .

* * *

إن أقوم تفسير يساير بعض الشيء المعنى الجيولوجي ، قد صدر عن أحد أتباع القديس أوغسطين ، وهو راهب إرلاندي من الدارسين ، أراد أن يقلل من الصعوبة التي تعترض الفكر اللاهوتي من ناحية استيطان الأحياء وتوزعها على سطح الأرض ، وبخاصة حقيقة أن الحيوانات التي هي في إرلاندا هي بذاتها التي في انجلترا ، فقال إن الأراضي التي هي منفصلة الآن ، كانت متصلة في سالف الأزمان . ولكن العوامل اللاهوتية ، مع الأسف ، قد أجبرته على أن يجعل انفصالها تالياً لحدوث الطوفان . من حسن حظه انه في عهده لم تكن قد عرفت حقائق كتلك التي تدلنا على أن ” الكنغر “ — Kangaroo لا يوجد إلاّ في جزيرة منعزلة في

المحيط الهادي ، وأنه بالتبعيـة لنظريته ، ينبغي أن يكون قد هاجر إلى موطنـه الحالي ، مع كل ولائده ، منتحياً طريقاً خفيًّـا لم يستطع أحد من الوحوش زملائه في سفينة نوح ، أن يشقه إلى حيث أقام !

* * *

هذه هي خطوط الفكر العامة التي اتبعها القديس أوغسطين في علم الجيولوجيا وما يتصل به من العلوم كعلم الحيوان ، وتبعه فيهـا كتلة لاهوتيي العصـور الوسطى ، إذا ما توجه انتباههم إلى درس مثل هذه الأشياء .

* * *

الخطوة الثانية التي خطاها علم الجيولوجيا على يد الـكنيسة ، تمّت من طريق اللاهوت المدرسي . ولـكن البحث الصحيح فيها قد خضع لتنميق العبارات . وفي خارج الـكنيسة ، كما في داخلها ، استحدثت ابتكارات فذّة طريفة . ففي القرن الحادي عشر عزى "ابن سينا" تكوّن الحفريات إلى قوة فيهـا قدرة على تخليق الصخور . وفي القرن الثالث عشر ، عزاها "ألبرت الـكبير" إلى "خاصية تصويرية" . وفي القرون التالية جسر بعض الفلاسفة على القول انها نشأت من بزور ، كما اتخذت نظرية أرسطوطاليس في التولد الذاتي سبيلاً إلى القول بأن هذه الحفريات المستحجرة لها قدرة التوالد ، كالنبات والحيوان .

برغم هذا نجد أن الآراء التي غرسها الفكر الاغريقي والفكر الروماني قد عادت إلى الحياة ، مرّة هنا ، وأخرى هناك . فان رجال المدارس العربية لم يلتزموا حرفية القرآن ، كما التزم حرفية الأناجيل معاصروهم من رجال المدارس النصرانية . وإلى فيلسوفهم الـكبير "ابن سينا" يرجع الفخر الاول في تصوير النظرية

الجيولوجية الحديثة تصويراً واقعيًّا ، نظرية التغايرات التي تصيب قشرة الارض (١) .

* * *

كان الأثر الذي أحدثه الاصلاح الديني أول الامر ، غير مُوات للنقد العلمي. فانه لم يكن من شيء فيه روح المعاندة للنظرية العلمية في نشوء الكون ، من تلك الفكرات التي اعتنقها قادة البروتستانتية . فإن استمساك لوثر وميلانكتون كل الاستمساك بحرفية الاناجيل ، وبخاصة رفضهم فكرة ان السيارات تدور من حول الارض ، قد امتدَّ إلى كل المقررات العلمية الاخرى التي تخالف النصوص المقدسة . وهنالك كثير من الحق في القول بأن العقبات التي أُقيمت في سبيل العلم كانت عند أوالي البروتستانت ألزم وألصق بالتفسيرات المستمدة من الكتب المقدسة ، منها عند رجال الكنيسة القديمة . أما الروح الشامل بين رجال الاصلاح الديني ، فلا يظهرك عليه كما يظهرك تصريح بطرس مارتر ، أو بطرس الشهيد ، إذ قضى بأنه إذا انتشرت فكرة خاطئة في الخلق تخالف قصة سفر التكوين — „ فإن كل تبشيرات المسيح تنتهي إلى لا شيء ، ويقضى بذلك على حياة الدين النصراني “ .

في العصور التي عقَّبت على حركة الاصلاح الديني ، سارت أحوال الفكر من سيء إلى أسوأ . فانه في ظل لوثر وصاحبه ميلانكتون ، عاش قدرٌ ضئيل من حرية التأمل ، ولكن في ظل أخلافهم قضيَ على هذه الحرية قضاءً تامًّا . فإن الشك في أي تفسير من التفسيرات التي قال بها لوثر ، قد اعتبر معصية تعادل

---

(١) انظر كتابات سير شارلز ليل ومسيو دارشياك — Sir Charles Lyell and Mr. D'Archiac.

الشك في تفسير الكتب المقدسة ذاتها . والمثل الأكبر على هذا ، ذلك الصراع العنيف الذي قام به القائلون بأن الطيور خلقت من الماء خاصة، والقائلون بأنها خلقت من الماء والطين معاً . ففي مدينة « لوبيك » وهي المركز القديم «للعصبة الهنسية» وفي قرابة ابتداء القرن السابع عشر ، نشر ,, بفَيْفر ,, المشرف العام أو الاسقف في تلك النواحي ، كتابه المسمى ,, وحدة الحكمة الموسوية ,, — Pansophia Mosaica ظاناً انه بذلك الكتاب سوف يهزم العلم إلى الأبد . وفي منظومة من الجملات الطويلة ، مضى يقول وباقتناع كامل إن النص الحرفي لسفر التكوين هو طريق الأمان ، وانه يتضمن كل الحكمة وكل المعرفة ، بشرية وإلاهية . وإذا كان الأمر كذلك، فمن ذا الذي يعنى بانفاق وقته في درس الاشياء المادية ، ويفكر في تركيب العالم ؟ وفوق هذا كله ، وبعد تقرير ذلك الرأي من حاكم له سلطانه في الدنيا اللوثرية ، لم يجرؤ أحد على أن يتكلم في « أيام » الخلق التي ذكرت في سفر التكوين على أنها « أحقاب متطاولة من الزمان » ، أو في « القبة السماوية » على أنها ليست قبة صمّاء جامدة تظلل الكون ، أو في « المياه التي هي فوق القبة السماوية » على انها ليست محوية في حوضٍ عظيم يرتكز على هذه القبة ، أو في « نوافذ السماء » على أنها ليست منصّات للكلام والتحدث منها .

* * *

تجلت هذه الروح ذاتها في انجلترا وظلت متسلطة إلى زمان سير «ماتيو هيل». فقد نجد في كتابه المسمّى ,, بأصل النوع الأنساني ,, المنشور في سنة ١٦٨٥ نظرية حرفية نشّئت بمقتضى ما جاء في المتون المقدسة، ظهر فيها العجز التام عن تكوين فكرة في أصل الأرض وتكوينها ، مستمدة من أي مصدر آخر .

وبينما كان الاصلاحيون من لوثريّين وكالفنيين وانجليكانيين يتشبثون

بالتفسيرات الحرفية للكتب المقدسة ، مشيحين بوجوههم عن البحث العلمي منصرفين عنه ، نشأ في بيئة من معاصريهم وفي بدء حركة "الاحياء العلمي" فكرات مثمرة في تلك الناحية من العلم . ففي بداية القرن السادس عشر ، كوّن "ليوناردو دافنشي" وهو من أفذاذ العلماء كما هو من أفذاذ الفنانين ، الفكرة الحقة في أصل البقايا الحفرية ، ومضى معاصره "فراكستورو" ينشّئ الفكرة ويربيها بمقتضى الأساليب التي رسمها الفكر الحديث . ذلك في حين أن غيرهما في أنحاء مختلفة من أوربا ، قالوا بفكرات إن امتزجت بكثير من الآراء الفجّة ، فإنها أمدّت العلم بحقيقة تلو أخرى . وعند أواخر القرن السادس عشر ، استوعب "برنارد بالسّي" في فرنسا هذه الفكرة ونمّاها بنبوغه الذي تجلى في قدرته على الخلق الفني ، فاستطاع أن يرفع صوتها ويسمعه الكثيرين . ومع هذا فقد ظلّ كثير من اللاهوتيين والفلاسفة ، بل وبعض رجال العلم ذوي الصيت ، يقولون ، متأثرين بسلطان العبارات المدرسية ، بأن الحفريات هي من آثار "مادة دهنية خثرتها الحرارة" أو هي من أثر "عصارة صوانية" أو نتيجة "حركات ثورية أحدثتها تنفسات أرضية" . بل عمّ هنالك اعتقاد في أن البقايا الحفرية على وجه عام ، يمكن أن تكون في جملتها من "ألهيات الطبيعة" ، وعقب المؤمنون على ذلك بأن هذه "الألهيات" قد تكون نتيجة غرض غير مستبان من أغراض الله : القادر على كل شيء !

وظلّ هذا على أنه الأسلوب التفسيري للعقيدة الارثوذكسية في الكنيسة ، من بروتستانت وكاثوليك ، خلال عدة قرون متعاقبة .

(البقية في العدد القادم) اسماعيل مظهر

نظرات في النفس والحياة

- ١٣ -

نظرات جونوثان سويفت

كان سويفت انجليزيًّا ولد في ارلنده وعاش بها في صباه ثم عاد اليها في أواخر أيامه ومات بها وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظاً وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء وقد عاش مدة في انجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسي الانجليزي وقد استشهد ثاكري في رسالته عنه برسائل سويفت التي تذلل فيها للسير وليام وأظهر ان ضرورة هذا التذلل كانت تحز في نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص . ولكن ماكولي في رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف ان سويفت قد استفاد علماً من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب في مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس . وقارن ماكولي بين الدكتور صمويل جونسون الأديب الانجليزي والكاتب الشهير وبين سويفت فقال ان آراء الأول مكتسبة من الكتب أما آراء سويفت فهي مؤسسة على الخبرة بالحياة. وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه وكان يأمل ان ينصّب أسقفاً في الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك لأنه في بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينقد حزازاتهم واختلافهم في أمور تافهة . واشهر مؤلفات سويفت كتاب اسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس . وقد خولط في عقله في أواخر أيامه وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه. وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان وهما التي رمز للأولى باسم ستيلا وللثانية باسم فانيسا وقد قال ثاكري ان انهيار عقله في آخر حياته كان مثل انهيار دولة كبيرة. ويقول سير والتر سكوت ان فانيسا ماتت غمًّا بسبب زواجه سرًّا من ستيلا ولو انه من المعروف ان فانيسا ماتت من السل وقال ناقد ان سخر فولتير كان مثل وخز سلاح المبارز؛

أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل . وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدته في القول وسلاطة لسانه سلاحاً في السياسة لم يسبق له مثيل فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة لأنه أكسبها رائع الأسلوب كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة. ولكن شدة سخره كما تظهر في المقالات السياسية كمقالات دريبر التي يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهي أطفال الأرلنديين وأكلهم ويَفْتَنّ في وصف طهيهم. كذلك تظهر شدة سخره في وصف ياهو المخلوق القذر في كتاب اسفار جاليفار وقد رمز به الى الانسان وفي مواضع أخرى كثيرة وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسي وبين سويفت فقال ان كليهما ذو بصيرة وفطنة ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس .

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبًّا للذات الجسم أم كان حبًّا للذات الفكر، أمر مشهور تفيض به كتبه. وكان يحارب به الرهبنة في المسيحية ونظرها الى الحياة والفكر. ويمتاز سويفت إذ انك لا تجد حرفاً أو كلمة يصح حذفها في قوله . أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهها فكأنه فى غزارته السيل المتدفق أو النمو النباتي الغزير وكما ان كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق إتمام قراءة رابليه ما به من غزارة الكلام وكثرة الاشارات الى أمور غامضة كانت معروفة في ذلك العهد البعيد . إلاّ أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو الى الأمل والى الرغبة فيها . أما كتب سويفت فقد تدعو الى احتقار النفس البشرية واليأس من الناس . ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح في النظرات الآتية التي نوردها مع التعقيب عليها .

(١) قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها الى الوجيهة ظنًّا منهم ان كثرتها تزيد الراجحة الوجيهة رجاحة ووجاهة. وهم قلما يفطنون الى ان زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة، ويدعو الى الشك فيها، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حجتهم ويبطلون حقهم، وان كانوا على حق وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت اليه من الحجج القوية ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها، ولكنه اذا فطن الى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك في غيرها . وقد يحسب الناس قوة الأخيرة من بلاغة

صاحبها أو مكره واحتياله فإذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع كل الاقتناع بالسليمة وتحرز من قبولها كل التحرز. وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذي أضيف إليه

(٢) مهما عظمت المنافع التي استفادها المرء منك فإنه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لإنسان ولم تُعِنْهُ على ظلم ذلك الانسان أو على إيذائه أو انتقاصه ولم تساعده على التشفي منه، فإنه يعدك ممالئاً له وإن لم تكن ممالئاً ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلته في الخير والعدل. فإن الشهوات لا تنصف ولا تتذكر خيراً استفاده منك صاحبها ولا تأبه لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم. فكأن ما أسديت إليه كان نعماً زائفاً وأمراً مدلساً - ويدهش الناس لو فطنوا الى حدٍّ ينقادون إلى مثل هذا الإغراء بالشر والالحاح في الحث عليه وهم ينقادون إمّا خوفاً أو طمعاً أو كسلاً أو استهواء أو شهوةً أو جهلاً أو ما شابه ذلك. وبعضهم يحسب الانقياد الى الشر ضرورة لا مناص منها مع هذا الالحاح وإن كرهها أو ادَّعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها وربما ينقاد إليها وهو لا يسوِّغها فقنع نفسه بالباطل، إنه إنما انقاد الى ضرورة من ضرورات الحياة التي لا مناص منها وربما غالط نفسه وعدَّ انقياده الى الالحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التي لا مخرج منها ولا مناص كي يطلق لنفسه العنان لإشباع نهمتها الغريزية في عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه. والانسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بالحاح مغر أو بغير إغراء وإلحاح إلاّ وهو يعد لنفسه الأعذار كي يستريح إمّا من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير.

(٣) أكثر الناس عندهم من الإيمان والدين القدر الذي يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم في أمر من الأمور وليس عندهم القدر الأعظم من الإيمان الذي يغريهم بحب الناس - فترى الناس يضطهد بعضهم بعضاً وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لأنهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى. وهذا يذكرنا بقصة (العذاب بالأمل) لمؤلفها فيليير ده ليل آدم الفرنسي وفيها أحد رجال

الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه إشفاقاً عليهم ورحمة لهم إذ لم يعذبهم كي يطهرهم بالعذاب ولم يكتف بالعذاب المادي بل كان يعذب السجين بالأمل فيترك له باب سجنه غير موصد كي يطمعه في الهرب فاذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته في الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب إشفاقاً عليه من تلك النجاة وهذا يذكرني قول الشاعر.

فكنتِ كذبّاح العصافير جاهداً   وعيناه من وجدٍ عليهنّ تهمل

وهذه القسوة الموصوفة في القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة ولكن أكثر النفوس في قسوتها في الحياة لا تحتاج الى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة .

(٤) كثيراً ما يخطىء ويخيب ذوو الفكر في أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عمله وفكره فإنّ شدّة تصوّر ذوي الفكر وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال ما يكون ، وحدة ذهنهم في بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو الى الحيرة والارتباك والتواني والى الشطط عن القصد في أثناء تلمسهم جوانب الفكر في الأمر بينما يمضي الرجل الذي لا يفكر كثيراً الى ما يكلَّف عمله فيعمله عملاً متقناً ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها وُرّاداً وإنما مَثَل ذلك مثل المدية اذا شحذت شحذاً شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق كتاب فإنها ربما حادت وجنحت من حدّتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعاً منتظماً بل قد تتلفها بينما لا تحيد المديّة التي هي أقل منها شحذاً. ولعلّ سَعَة الفكر تدعو الى أن يعد صاحبها من الممكن عمليا ما هو من المحال ولقد رأينا نابليون بونابرت ينجح في تنظيم إدارة فرنسا وفي تنظيم معاركه بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحياناً الى طلب المحال ، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحاً كبيراً في الحياة وكان يتنازعهم العاملان عامل الارادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديان الى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام .

(٥) يلوم الناس الانسان لأنه لا يعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه ولكنهم قلما يعترفون انه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه وقد يبخسها وينتقص نصيب

نفسه منها لأنها تكون كامنة خافية عنه لا تظهرها إلاَّ الحوادث المواتيه المناسبة وإنما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه في بطن الأرض فانه يخفى على من هم على سطح الأرض ومثل هذا الانسان الذي يخفى عنه مقدار ملكاته كأنما يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذي في بطن الأرض ممن هم على سطحها — وقد يستنبط هذه الملكات الايحاء أو الحب أو المنافسة أو الضرورة، والضرورة التي تستنبط الحيلة والقدرة والملكة في بعض النفوس اذا صحبها ما يدعو الى الارتباك أو كان في جهاز جسم صاحبها ما يدعو الى الحيرة، أخلَّ بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع كالذي لا تظهر كنوز نفسه إلاَّ اذا ابتعد عن الضوضاء . فان ضوضاء الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وكما تشرد افكاره اذا سمع جلبة وأصواتاً صاخبة. ولكن بعض الناس لا تظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلاَّ اذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان. وقد يفاجأ المرء ببروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مباغتة وقد كان لا يظن ان عنده تلك القدرة كما كان الناس لا يرونها في نفسه وبغتات النفوس متنوعة .

(٦) دعانا بعض الفلاسفة الى نبذ أكثر رغباتنا حتى اذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا ان نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير ان نشقى في الحياة. وهذه الدعوة مثل دعوة من هو في حاجة الى النعل ان يقطع رجليه قد يستغني عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلاَّ بالطلب كما لا يتقدم من هو في حاجة الى النعل إلاَّ بقدميه. ومن قديم الزمن ما شحذ ذهن الانسان ونما عقله ومرن بدنه إلاَّ لأنه خالف هذه الدعوة الى انتقاص الرغبات والحاجات واستَنَّ لنفسه سُنَّةَ الاقبال على طلب الدنيا .

(٧) لو ان انساناً كتب جميع آرائه في أمور الحياة المختلفة منذ صغره الى ان صار شيخاً لوجد اختلافاً وتناقضاً كبيراً في آرائه في كل أمر من الأمور في مراحل العمر المختلفة، ومع ذلك فان الناس كثيراً ما يلومون المرء لأنه غيَّر وبدَّل في آرائه وهم لا يفطنون الى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم . ولو أن انساناً لم يتغير رأيه في الأمور من عهد طفولته الى مماته لَدَلَّ ذلك على ان عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وان كانت

هذه يصيبها التغير أيضاً — ولعل السبب في ذلك ان الناس يخلطون بين تغير النفاق الذي سببه الاهواء وتغير النمو وهم يميلون الى سوء الظن فينسبون كل تغير الى النفاق الذي يجعل المرء شبيهاً بالآلة التي توضع في مَهَبّ الرياح فتعرف بها الجهة التي تهب منها . فتغير الرأي قد يكون تَهَدِّياً الى الصواب ونموّاً في العقل وقد يكون طيشاً وعبثاً فيمن لارأي له. وقد يكون مكراً واحتيالاً للكسب . وبالرغم من ان الناس يلومون من غَيَّر رأيه فانهم اذا وجدوا أرَباً أو نيلاً منه أو قدحاً فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه .

(٨) عرفت أناساً كانوا ذوي مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فَهُمْ كساعة الظل التي كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارَّة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت الذين نَصَبُوها . وتلك المواهب النفيسة قد لاتنفع أهلها فحسب بل قد تضرهم فإن الفائدة المرجوَّة للمرء في الحياة لا تكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر ما يستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا . فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولوأن نفوساً أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازنها ما بالت نفسه، وقلما تسخَّطت أو حاولت عبثاً أن تغير سنة الحياة إلاَّ في حالتها .

(٩) رغبة بعض المفكرين في إبطال مطامح الناس التافهة ورغباتهم التي لا قيمة لها في ذاتها ، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها ، خطة تدل على نقص في الحكمة والخبرة بأمور الحياة إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامح اذا جعلت جزاء للعامل ومكافأة للمُجِدّ، ترغبة في الكدح والعمل وفي ارتياد سبل الفضائل والفضل. أما أن يقال إن الفضائل ينبغي أن تطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاء عليها فنظرة حسنة ولكن طباع الناس في الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها ولامناص مما تتطلبه الحياة، فالشهرة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لا قيمة لها في نفسها ولكن قيمتها فيما تؤدي إليه من العمل والجد . ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع الى ذلك سبيلاً كي ينال رثاء حسناً اذا مات وكي يكتب بعضه على قبره ـ وهذا يذكرنا كلمة لنابليون

بونابرت في هذا المعنى وفي فائدة الرتب والأوسمة عند ما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية . ولكن سويفت بالرغم من فطنته الى أنها وأمثالها مدعاة الى العمل ومن محركات الحياة فانه يسخر بالمتهالكين عليها في كتاب أسفار جاليفار . اذا اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا في عمل الشر بسببها .

(١٠) بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجعل أراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يوماً الى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشَذِّب بعضها بعضاً كما يشذِّب الحَصَا باحتكاكه ، فتتحوَّل الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة الى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب . ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر . فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو الى حرية الفكر ما دامت تضطهدها غيرها فاذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة في تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر — وقد تَتَبَّع (فان لون) في كتابه (تحرير الانسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف الى عهد الجيلوتين. ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله . وما صنعه (فان لون) صنعه في صيغة أخرى برتران ده جوفنيل في كتاب (القوَّة) وقد قال جوفنيل إن كل من يستبد بالقوَّة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه ينوب عن الشعب والواقع كما أوضح أن في استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول وانما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل. ومن الغريب أن جوفنيل وكان مندوب فرنسا في سوريا يقول في القوَّة قولاً قاله قبله شيلي الشاعر الانجليزي في صيغة أخرى فقد قال في بعض قصائده (إن القوة كالوباء الذي يتفشى فيصيب كل ما يقربه والخنوع لها عدو للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة) ولكن كيف يستطيع الانسان أن يكون في غنى عن القوَّة أو أن يقيدها ؟؟

فالثورة الفرنسية التي كانت ثورة على القوّة وأعطت في أول الأمر كل مدينة أو اقليم حق انتخاب حكامه كلهم ، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك، ما لبثت أن صارت في عهد مجلس أو لجنة السلامة مركزية شبه توتا ليتارية . وبالرغم من أن جان جاك روسو في كتابه (العقد الاجتماعي) كان بشير الحريات الفردية فان به نزعة توتاليتارية تظهر في أمور كثيرة منها تقديس الدولة والقول بانعدام حق كل ارادة في الإرادة العامة، ومنها إباحة حكم الحاكم الدكتاتوري الفرد الذي ينوب عن الديموقراطية في بعض الأحايين، ومنها القول بنفي أو قهر من له ارادة لم تنعدم في الارادة العامة . ولما كانت الإرادة العامة كالديموقراطية أمراً تقريبيًّا فهي إرادة الكثرة أو ما يُسَمَّى الكثرة، وإن كانت كثرة ظاهرية . وبعض اليعقوبيين الديمقراطيين قالوا — عند ما كانوا قلة — إنهم كثرة لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب في العصور الطويلة المقبلة عند ما يتعلم كل آحاده أن يعدم إرادته في الإرادة العامة . فالعالم لا تزال تتنازع فيه القوّة الطوائف والأحزاب المختلفة وكلٌّ يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأي غيره . ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يوماً على قبر جان جاك روسو وقال — وقد كان في صغره يردد آراءه — لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد . فقال له جيراردين ان آراءه أفسحت لك الطريق يعني بأثرها في الثورة الفرنسية فقال نابليون : ربما كان من الصالح العام لو أنَّا كلينا لم نولد .

(١١) ربما خُيِّل لنا أن الكلام المواتي الكثير عن المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأي وهو كثيراً ما يكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار ما يختار من الكلام من غير مشقة . فاذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأي قد يطول تردُّده قبل الكلام — ولعلَّ في هذا بعض العزاء لذوي العي إذ غاية ما تصل إليه غزارة المادّة أن يكون المرء أشبه بالعَيِيِّ في تردُّده قبل الكلام من وفرة المادة كما قال الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش   فلا يدري خراش ما يصيد

وكثرة الكلام مع قلة المادّة أمر معروف . ولعلَّ أفكه مثل لهذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كسِيَت من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكيلَّة) أو الناموسية

والسرير وهي محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنبه بعد ذهابهما الى الفراش وهي من تأليف دوجلاس جيرولد . وقلة المادّة لا تعوق تأثير الكلام الكثير في السامع فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد في السياسة وفي غيرها من مظاهر الحياة المختلفة . بل لعلّ قلة المادة تدعو الى أن يفضله كثير من الناس لقلة العنت في فهم مادته القليلة .

(١٢) قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعضَ كلامه شيء من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع انتقاصاً له وهي ليست انتقاصاً وإنما يفعل ذلك اذ يقول في نفسه إن هذا الرجل المفكر لا بدَّ أن يكون وراء كلامه معنى مستتراً غير ظاهر معناه — ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدِّث الفَطِن أو من كان من أهل الفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم . فإن السامع إذا صادف كلامُ القائل صفةً يخشى أن يظنها الناس في نفسه عد كلامه تعريضاً به وربما تسرَّع بالإساءة الى قائلها ومن أجل ذلك يُفْرَض على مؤلفي القصص أن يقولوا إنهم لا يعنون أحداً بأناس قصصهم وإنهم من صنع الخيال . والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادّة لفنه فيجعلها فناً عاماً ولكن الناس كثيراً ما يحيلون الفن العام الى شخصيات معينة وذلك في قول المفكر أو القصصي أو الشاعر . وأكثر هذه الإحالة ترجع الى العقد النفسية وإحساس الناس بصدق قول فرويد في كتاب (العلل النفسية) إن كل نفس إنسانية تجمع في وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ما هو إنساني في جميع النفوس بل كل ما هو حيواني في الحيوانات كلها فيجعلون كل ما في الوعي حقيقة كائنة في الحياة متى أرادوا وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم الى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة الى التعميم في أحكامهم المخطئة . كتعميمهم في الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة .

(١٣) في أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعي والعمل له يفكر المرء في محاسنه وأطايبه ومسراته وفضائله فاذا ناله بدأ يفكر في أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوىء والعيوب وإنما رُكِّبَتْ النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كي تستأنف مطالب الحياة وكي تطمع في المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد وربما بخست

الأمر الذي نالته كي تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التي هي قوام الحياة .

(١٤) اذا هاج البحر ورأى أهل سفينة ان تُخَفِّفَ أحمالها وأثقالها كي تنجو وينجون من الغرق بأن يقذفوا بعض أحمالها في البحر ، ربما حاول كل منهم ان يخفي متاعه ويعظ غيره كي يلقي متاعه في البحر وهذا مثل الذين يفضلون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ونجاتها ، فتضيع أنفسهم وتضيع الجماعة التي هم منها وهذا التواكل يكثر عادة في الأمم التي فقد أحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة .

(١٥) اذا أراد الانسان ان يتسلق ويعلو فلا بد ان يتسلق كما تفعل القِرَدة على قدميه ورجليه . والطمع في مناصب الجاه والسلطة قد يتطلب من المرء ما هو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعني التقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته الى آخر هذه الأمور فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تفعل القرود .

(١٦) السبب في خيبة كثير من الأزواج ان نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصاً لأزواجهن كأقفاص العصافير المُدَلَّلة البيتية التي تزَيَّن أقفاصها كي تأنس اليها، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاخ والشباك التي تصاد بها الحيوانات .

(١٧) كثيراً ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشيئة القدر الغالبة النافذة . أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور ولا سيما الذين يثقون إن الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم إذ ان هؤلاء ينسون حتى أثر الأقدار في توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح . وهذا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب ، فكان اذا طلب منه انسان صَدَقَةً يقف ويلقي عليه محاضرة في فوائد الاجتهاد والجد في العمل ويقول له لو كنت اجتهدت لصرت مثلي .

(١٨) كثيراً ما يعلل المرء نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره وستشغل بما كان أهل دهره عنه في شغل. فينصفون عمله أو قوله كما أراد وينسى ان أهل العصور المقبلة تَسْتَجِدُّ لهُمْ فيها أقوال وأمور هُمْ بها في شغل وهذا الوهم هو مما يزيد اقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وان كان قلما يتحقق، ولكنه من سنة الحياة التي تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم .

(للبحث بقية) ع . ش

آراء
في العظماء والعظمة

— ٢ —

لأميل لودفيج

العظماء من الرجال إنما هم عظماء في الحجم والشكل . ذلك لأن لهم من المحامد والمذام ما للرجال العاديين مع فارق واحد هو زيادة الحد في كل محمدة ومذمة . فاذا روعيت النسبة كانوا هم والرجال العاديون بمنزلة سواء (جوته)

فقاطعته « دوللي » قائلة بصوت عال : قل لي بحق السماء . لماذا لا يدور حديثك إلاَّ حول هؤلاءِ الساسة القدماء كأن ليس بين رجال الفن أي عظيم ؟

— هذا ينقلنا الى ميدان آخر . إنَّ المفكرين والمصورين والشعراء الذين يخلّفون وراءهم آثاراً باقية قد يسهل على المرء أن يعرف أقدارهم كأفراد من عظماء الفكر أكثر من معرفته بأولئك الذين يتقرّى المرء أقدارهم من ثنايا حوادث قد فنيت وزالت . فنحن لا نعرف شيئاً عن « هومير » سوى انه كان عبقريًّا « هذا إذا كان « هومير » هذا قد عاش يوماً ما على ظهر هذه الدنيا » .

ونحن إذا لم نكن قد عرفنا أبداً شيئاً عن « شكسبير » أو « موزار » فقد يبقى لنا طابع العظمة لرجلين مجهولين .

ولو أنَّ ألحان « شوبير » أو « بيتهوفن » قد انحدرت إلينا مجهولة المولد والنسب لقلنا عن منشئيها إنهم عظماء . وذلك كما نسمي الجندي المجهول عظيماً دون أن نعرف من هو ذلك الجندي .

إنَّ معرفة تفاصيل حياة أولئك الناس تكشف لنا عن أشياء كثيرة ، ولكنها لا تزيد أو تنقص في قدر أعمالهم وقيمتها .

والفنانون المبدعون يختلف مصيرهم الاختلاف كله عن مصير المقلدين المزيفين .

وحذّاق الموسيقيين والممثلين ومَهرة المصورين يعيشون ما بقيت أشخاصهم ويزولون بزوالها . فمن كل الموسيقيين الذين كاد قومهم يفتتنون بهم لانجد إلاّ واحداً منهم قد ظفر إسمه بالخلود . ذلك هو « باجانيني » (١٧٨٢ — ١٨٤٠) وهو عازف الكمان الذي طاف أوروبا يعزف ألحانه . ولقي نجاحاً في كل بلدٍ حلَّ به . ذلك لأنَّ صاحب هذا الاسم كان إذا عزف . سحر النساء بعزفه . وكان يغمى عليهنَّ إذا سمعنَ ألحانه .

قالت العازفة الشابَّة : من ثمَّ يتبين أن ليس من مستلزمات العظمة أن يكون صاحبها من أولئك الذين يحيوْن حياة تتفق والخلق الكريم .

الفيلسوف : نعم إنَّ ذلك ليس من مستلزمات العظمة . فتنفست كلتا المرأتين الصعداء. وذلك على الرغم مما بينهما من تفاوت وتباين .

ثم استطرد الفيلسوف يقول : إن هناك بالطبع شيئاً اسمه « العظمة الخلقية » . ولكن العظمة – باديء ذي بدء – ليس الخلق من شرائطها الأولى .

التاجر : إنك لن تستطيع أن تسمّي عظيماً رجلاً ذا خلق . لخلقه وحده . فإن عامل اللاَّسلكي الذي لا يغادر سفينته التي ضربت « بالطوربيد » حتى يقضي القضاء أمره لا يسمى عظيماً .

الفيلسوف : لك أن تسميه – ان شئت – بطلاً . ولكن لن يسمى – بأية حال – عظيماً فهناك أبطال كثيرون ليسوا – في الحقيقة – عظماء . وهناك عظماء كثيرون ليسوا أبطالاً . فالجندي الذي أنقذ بفضل شجاعته وذكائه حياة ثمانين من إخوانه في معركة « دنكرك » يستحق وساماً . ويستأهل أن تؤلف للاشادة باسمه أغنية . بل قد يستحق أن يقام له تمثال . ولكنه لن تظهر صورته أبداً في ساحة العظماء .

دوللي : وماذا تقول في عظمة الرجال ذوي الذكاء ؟

– إنهم بعيدون عن أن يسموا عظماء . واني أنكر – في قوَّة وإصرار – هذه الدعوى. فالقول في عراكه مع العمل ليس دائماً منتصراً . فإنَّ القليل الذي نعرفه عن « الاسكندر » كرجل من رجال الفكر ليس السبب في كونه عظيماً .

قالت العازفة في صوت خريد : ولكنَّ الاسكندر كان فتىً جميلاً !

فقالت لها صاحبتها : جميل ! لقد أبعدت . ولقد بعد مرمى خيالك ! وعلى هذا فإن أي نجم من نجوم الشاشة البيضاء يمكن أن يسمى عظيماً !

الفيلسوف (ضاحكاً) : إن الناس على أية حال يظنون ذلك . ولكن إذا جاء فاتح من الفاتحين وكان له جمال « الاسكندر » فإنَّ هذا الجمال يكون حتماً جزءاً من عظمته . فهو بجماله كانه يقدّم الأغاني والشعر الوجداني لكل القطع الموسيقية التي عزفها في حياته .

الطفل : ومن هو الاسكندر ؟

الفيلسوف : هل سمعتم ما يقوله الطفل ؟ إنّه قد أنصت لأنه سمعنا نتحدث عن رجل جميل .

التاجر : إذن حقّ لي أن أفترض أنّ لك أن تقول : ان الرجل الدميم لا يمكن أن يكون رجلاً عظيماً .

الفيلسوف : لقد كان كثير من العظماء دميمي الخلقة أنظر الى صورتي فولتير ودانتي قد كان لهذين الرجلين أمارات من النبوغ تبدو على وجهيهما . أمّا سقراط فقد كان في فرط دمامته يشبه بريكليس في فرط جماله .

ثم وقفوا جميعاً وبدأوا يمشون هوناً على الشاطىء مولّين وجوههم شطر الشمس الغاربة وكان الطفل يسبق القوم حيناً . وحيناً يمشي وراءهم . ولكنه يعود دائماً ليمسك بيد أمه .

الفيلسوف : إن الشمس صارعت العظماء كلهم فصرعتهم فماتوا وعاشت بعدهم . وهي تبدو كل يوم كأنها أوشكت على الفناء . وإذا بها تولد كل يوم مرة أخرى .

التاجر : دعني ألخّص القضية : إنك قد بيّنت لنا إلى هذه اللحظة أنّ العظمة إنما تتمثل في الروح البانية لدى السياسي . وفي الروح المبدعة لدى الفنّان . وفي الحالة الأولى نرى ان الشخصية هي قوام العظمة وملاكها . وليس الأمر كذلك في الحالة الأخرى .

فما قوام العظمة وملاكها لدى الروّاد والمكتشفين والمخترعين ؟

فصاحت « دوللي » : هذا سؤال جدّ عسير . وقد أمسكنا أخيراً بخناقك !

فضحك القوم كلهم . وضحك الفيلسوف لضحكهم . ثم أجاب في هدوء وتؤدة : ما الذي أصار « كولومبس » شخصيةً عالمية . ولم يضف هذه الصفة على « فاسكو دا جاما » ؟

فلو أنّ شخصاً مجهولاً كان أوّل نازل بأرض « سان دومنجو » لكان الظن به - أكبر الظن - أن يصيبه الزكام وأن يبنى له نُصُب ينقش عليه : « مكتشف أمريكا » .

وقد صار « كولومبس » الشخصية الحيّة التي يعرفها كل طفل في هذه الدنيا عن طريق قصته التي هي بالأساطير أشبه . فقد نشأ فقيراً يكسب بضع دراهم . ثم شبّ فصار شابّاً مغموراً يسافر إلى بلاد بعيدة تلازمه أحلامه الضخمة . ثم ظلّ بعد ذلك عشرين عاماً يطارد القوم ويلاحقهم - في إلحاح والحاف - بمشروعاته الخيالية . ثم اذا هو آخر الأمر يستطيع أن يسحر لبّ أقوى ملكة في زمانه حتى لتنزل لهذا المغامر عن حليّها . وحتى لتستودع هذا المخاطر بواخرها وحتى لتمنيه بالثروة والجاه .

ثم يسافر هذا المغامر فوق متن البحر . ويكتشف أرضاً وهو لا يعرف أنه قد اكتشفها . ثم يعود فيصبح سيّداً من أولي المجد . ثم يوشى به ويفترى عليه . ثم يسلك في السلاسل والأغلال . ثم يموت يوم وافته منيّته مجهولاً من الناس كلهم . بل جاهلاً هو أنه قد اكتشف ما اكتشف .

إنها هذه الصورة التي تصوّر عظمته . وهي قصةٌ يتوجها الخطأ !

العازفة : ما أبدع هذا الوصف ؟ لكأنك شاعر من الشعراء !

فضحك الفيلسوف وقال : لتمنيت أن لا أكون شاعراً . ذلك لأني أنظر في الصفحة الأخرى التي تناقض الشعر . إني أنظر الى الصدق !

دوللي : نعم ! نعم ! ولكن ما قولك في الروّاد عندنا . هل تقول أنهم لم يكونوا عظماء ؟

— إنهم كانوا رجالاً بارزين . ومع ذلك فلم يشتهر منهم أحد .

التاجر : وعلى هذا فانك تجعل الشهرة صنواً للعظمة ؟

— إنما أقول أنّ الشهرة آخر الأمر أي في غضون أجيال تحدّد مكانة أعلام الرجال . إنّ نبوغ رجل من النوابغ قد يظل منكوراً لجيل أو جيلين . ثم إذا بهذا النبوغ يُعرف قدره ، ويشتهر بين الناس أمره . حدث هذا « لكوبرنيكوس » و « لجاليليلو » اللذين كانا عند الناس في عداد القوم الضالين المضلّين .

وكان هذا نصيب كثيرين من رجال الفنون بل من النبيّين .

إنّ كثيراً من الرجال أولي الفضل ينالون من قومهم فوق ما يستحقون من قدر ثم ينسون بعد حين . وإنّ آخرين منهم لا يقدرهم قومهم حق قدرهم . ثم يُرفع قدرهم بعد حين. وهذا ما يفسر لنا العزلة التي يسعى وراءها ذوو الفضل من الرجال . حتى أولئك الذين يقومون على خدمة الجمهور . بينما نرى أناساً هم في المقام الثاني يفرّون من العزلة ويهربون. ودليل هـذا قائم في المقارنة بين « شارل الخامس » . وكان أقوى ملك في زمانه . وبين « سيزاز بورجيا » فان الأول كان حليف عزلة . بينما الآخر — وقد كان مدخول النسب — كان لا همّ له الا أن يرى الأيدي تصفق له . وألا أن يسمع الألسن تهتف باسمه وتمجده .

التاجر : وماذا تسمي أولئك الرجال الذين قدرت أعمالهم المجيدة حق قدرها وهم أحياء ثم لم يمجد فضلهم وقد غيّبتهم القبور ؟

الفيلسوف (مبتهجاً) : إني أسميهم رجالاً محظوظين . ولو أنك سألتني من هو الرجل العظيم الذي استمتع بالوجود الكامل في حياته . والذي ظلّ اسمه مذكوراً طوال الدهور لقلت . . .

قالت العازفة : انه لورد بيرون ؟

قالت المدرّسة : بل هو اوغسطس ؟

الفيلسوف : قد يمكن أن يكونا كذلك لولا ما غشى أيامهما الأخيرة من عتمة وظلام . والرأي عندي أن العبقريّ الكامل هو « تيتيان » (١٤٧٧ — ١٥٧٦)

التاجر : إننا لا نعرف من أمر صاحبك هذا شيئاً .

وقالت المدرسة (وقد بان عليها الغضب) : اذا كان الأمر كما تقول فلماذا لم تكتب تاريخ حياته ؟ .

الفيلسوف : ذلك لكي لا أفقده ! وعلى أية حال فقد كان هو واحداً من أولئك المصورين العظام . القلائل الذين أنجبهم العالم . بل قد يكون أعظمهم . وهو في الوقت نفسه قد عاش كواحد من الملوك . بل هو قد جعل الملوك تُحس أنـه أعلاهم مقاماً . فقد كان نابغاً في فنّـه . وقد كان نابغاً في حبّـه . وقد كان نابغاً في بعد صيته .

مثل هذا الرجل يذكّرني بتلك الأشجار الهائلة الضخمة التي تقوم في الغابة كالحصون

وهي تَطلّ من أعاليها على نجوم الغبراء التي لا تقوم على سوق .

ومن تخوم غابتنا ـ أي هذه الدنيا ـ ظللت طوال حياتي أرقب هذه الأشجار الهائلة الضخمة . وذلك منذ رأيتها أول مرّة في « أفريقيا » وهي شامخة الذرى . ومذ كنت أرى طائراً ضخماً يطير من شجرة الى أخرى حيناً بعد حين .

التاجر : ولماذا لم تفتش عنهم يوماً من الأيام فيما بيننا . وفي عقر دارنا ؟

الفيلسوف : لقد فعلت ووجدت أعظم رجل قابلته في حياتي .

دوللي : ومن كان ذلك الرجل : هل كان الرئيس ولسن ؟

العازفة : هل كان « بدروفسكي » ؟

التاجر : بل هل كان « هنري فورد » ؟

وعندئذٍ صاح الطفل وهو يردد إسم « هنري فورد » . ذلك لأنه كان يعرف الاسم .

الفيلسوف : لقد عرفت الثلاثة . ثمّ توقّف الفيلسوف عن القول ونظر إليه القوم آملين راجين .

وظلّ هو ساكتاً يستمتع بما أثار فيهم من تطلّع . ثمّ تكلم فقال : إنه كان « توماس إديسون » .

قالت « دوللي » وقد خاب أملها : تقول من ؟ ولكن لماذا يكون اديسون ؟ ألأنّ إسمه يذكّرنا بالمصباح الكهربائي . وبالفونغراف . أو لأنه قد يكون لصاحب هذا الإسم بعض العلاقة بجهاز الصّور المتحركة . وربما بالراديو ؟

ـ كلاّ ! فلا دخل للمصباح الكهربائي أو الفونغراف . إنّ شخصية « إديسون » كانت من ذلك النوع القوي المتسلط الذي يخضع له كل من تربطه به صلة .

وهو كرجل تقدّمت به السن ـ يوم رأيته ـ كانت تلوح على ملامحه العظمة . فرأسه الوقور الذي اشتعل « شيباً » . والذي لم ينحني من أثر السنين . بل زاده تقدم السن رفعة واعتزازاً . وضحكته التي هي بضحكة الشباب أشبه . وصوته الجهوري الذي ينبئك عن صمم صاحبه . والتزامه للمألوف في كل شيء . وابتهاجه الذي يشعّ تلألؤاً وضياء . كل أولئك يكفي لو كنت رأيته جالساً على الرمل عند غروب الشمس دون أن أعرف من كان هو . حتى

لأرى نفسي مدفوعاً الى السؤال : من هو ذلك الرجل الكامل ؟

إنّ خيالنا يوجد تلازماً بين هذا الرجل العظيم وبين جميع الأعمال التي فكّر فيها. وكذلك بينه وبين صنوف الكفاح التي تغلّب فيها على خصومه. وكذلك بينه وبين ومضات الفكر الوضّاءة التي أضاءت العالم. ولن يجد الباحث شيئاً من هذا عند « هنري فورد » أو « بدروفسكي » أو « ولسن » وكلهم قد قاموا بأعمال جليلة في عصرنا هذا.

التاجر : وما رأيك في « باستور » ؟

العازفة : وما رأيك في « داروين » ؟

الفيلسوف : رجلان من العظماء. ومع هذا فإنّ مجدهما لا يرجع الى ما اكتشفه كلاهما أو اخترعه. فإنكِ لن تجدي الاّ رجلاً في كل عشرة آلاف قد قرأ شيئاً عن أعمالهما. ولكن اللبن المعقّم على طريقة « باستور »، وتلك النظرية المزعومة التي تقول إنّ الانسان من سُلالة القردة قد تأثّر بهما خيال الملايين من الناس. بينما « كوخ » و « لامارك » اللذان يكادان يدانيهما عظمة لم يوهبا شهرتهما.

دوللي (وهي تهزّ كتفيها) : كل هذا ظاهر عندي الى أبعد حد.

الفيلسوف : وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟ وقد نطق الفيلسوف هذا القول بلهجة التوكيد. ذلك لأنه كان يقصد الى كسب رضى المستمعين اذا لم يستطع إقناعهم الاقناع كله.

ثم استطرد يقول : إنّ الذي يهزّ مشاعرنا كلنا عند التحدث عن العظمة هي الأعمال الانسانية. إننا نرى صورة أنفسنا منعكسة في صورهم ذلك لأنّ كل واحد منّا يجدّ ويسعى لمثل ما جدّوا وسعوا. ولكن مع الفارق في القياس. فعامل المصعد عندما يقرأ كيف ارتقى « لنكولن » يحلم أنه سوف يصير مدير فندق في بضع سنين.

التاجر : إننا بصفة عامة نرى صورنا منعكسة في صور معاصرينا فمن من زعماء عصرنا نحسبه عظيماً ؟

الفيلسوف : لست أستطيع الجواب عن هذا قبل عام ٢٠٠٠ عندما نعود الى هذا الشاطىء ذلك لأن المحيط الهادىء لن يناله التغيير إلاّ قليلاً فتتشابك العقول اليوم بجهل

من الصعب أن تفسّر أعمال كل فرد تفسيراً نستريح اليه

دولي (ضاحكة) : ولماذا تولاك الحرص والحذر بغتة قلها كلمة صريحة ولا تخف ! أتحسب « تشرتشل » رجلاً عظيماً ؟

الفيلسوف : لن يستطيع أحد الجواب قبل أن يعرف أولاً كل الأسانيد المدعمة التي لا تزال سرّاً غامضاً وأن يضمّ اليها أوراق « تشرتشل » الخاصة وكذلك قبل أن يعرف الموتة التي سوف يموتها

فإن حياةً بغير فصلٍ ختامي إنما هي جزء من حياة لا حياةً كاملة، مثلها في ذلك مثل تمثال لم يتمّ نحته أو مثل رواية لم تتم فصولها ، فمن يعرف كيف كان يسلك « ولسن » في عداد العظماء لو أنّه كان قد قتل في نوفمبر من عام ١٩١٨ ؟

العازفة : إذن أنت تعتبر الموت جزءًا من الحياة ؟

— بل اعتبر الموت أكثر من ذلك إنّه المفتاح لفهم حياة الرجل

التاجر : (في لهجة الشك) : إذن فالأمر عندك أن كل شهيد يمكن أن يكون رجلاً عظيماً

الفيلسوف : كلاّ ! إنّ المسيح لم يكن عظيماً بسبب صلبه وإلاّ ـ لو صحّ هذا ـ لكان ضحايا النازي الأبرياء كلهم عظماء

إنّ المسيح كان عظيماً ذلك لأنه كان يعظ الناس ويهديهم الى سواء السبيل، وليس ذلك فحسب ، بل لأنه كان يعمل بما يوصي به . وقد ضحّى في سبيل ذلك بحياته . وقد يكون سقراط أعظم تضحية ذلك لأنه مات بمحض ارادته . ليضرب لقومه الأمثال . وقد كان سقراط يستطيع أن ينجو . أما المسيح فلم يكن له خيار في الأمر . وكذلك كان قتل « الرئيس لنكولن » في الساعة التي كسب فيها الحرب سبباً في كسب قلوب قومه وقلوب ذراريهم .

التاجر : وماذا ترى في غاندي ؟ أليس هو أيضاً يشبه الى حدّ ما نبيًّا كعيسى ومحرراً « كلنكولن »

— نعم هو كذلك . ولكنه لا يزال حيًّا (كان ذلك بالطبع قبل قتل غاندي) فإذا قدر عليه أن يموت في أثناء نوبة من نوبات اضرابه عن الطعام فان الجنود قد يتخذوه الهاً.

ولكنه لو ساء حظه فتولى رئاسة الحكومة فانه سوف يكون باعثاً لخيبة الأمل عند كثير من أتباعه ومريديه · فغاندي يراه الناس في خارج الهند عظيماً ذلك لأنه ابتدع قاعدة تمت الى الدين بصلة قوية وهي قاعدة « عدم العنف » وهو بسبب هذه النظرية يسلك في عداد الرجال « العظماء »

دوللي : ولماذا لا تتكلم إلاَّ عن الرجال كأن ليس بين النساء عظيمات ؟

الفيلسوف : ذلك لأن العظمة بين النساء هي أقلّ وأندر وهي أكثر تعقيداً من العظمة عند الرجال . إن عظيمات النساء في التاريخ قد روعي في قدر عظمتهنَّ أنهنَّ نساء، فالجنس هو الذي أوحى بالحكم لهنَّ بالعظمة وليس كذلك الحال ـ في الأعم الأغلب ـ مع العبقريين من الرجال، فالملكات وحظايا الملوك اللائي نعرفهنّ هنّ خير أمثلة على هذا القول « فكاترين » الكبرى قد تأثرت بحياتها الجنسية أكثر مما تأثر بها عدوّها « فردريك الأكبر » ولو أنه كان ذا شذوذ جنسي وكان لذلك أكثر تأثراً بالمسألة الجنسية أكثر من الرجل العادي

المدرّسة : ألا ترى أنه كانت هناك بضع نساء عظيمات من المجاهدات ؟

الفيلسوف : إنك تجدين منهنَّ في الأمم التي تغلب عليها العاطفة كالفرنسيين والروسيين وأنك لن تجدي بين الانجليز السكسونيين فتاة « كجان دارك » أو « شارلوت كورداي » وإني لتعجبني المرأة التي ترفع العَلَم أو تحمل السيف دفاعاً عن الحرية أكثر مما يعجبني الرجل . ذلك لأن نصيبها من العذاب في ذلك يكون ضعفين · وذلك لأنَّ حمل السلاح ليس من تقاليد النساء .

وهذا القول يذكر القارئ العربي بقول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيول

العازفة : وأولئك النسوة اللائي كنَّ عظيمات في فنون الحب ؟

فتبسم الفيلسوف وقال : إن المرأتين اللتين قد فتنتا قومهما وذراريهما أكثر من غيرهما (وهما « كليوبطره » ـ وهي أشهر من أن تعرف ـ « ونينو دي لينكلو » ـ ١٦٧٠ ـ ١٧٠٥ ـ وهي التي فتنت « ريشيليو » بذكائها وجمالها) قد كان الحب الدافع لهما والموحي إليهما . وقد كان بين النساء بضع شاعرات وبضع مصورات . ولكنهنَّ لن يمكن

أن تصح المقارنة بينهنّ وبين معاصريهنّ من الرجال .

فقالت دوللي لصاحبتها : أرأيت كيف يجعلنا في المقام الثاني ؟

الفيلسوف (ضاحكاً) : بل بالعكس فإنكنّ في المقام الأول ! ذلك لأن معظم النساء يعرفنَ الطريق التي تشعر الناس بقوّة نفوذهنّ وعظم سلطانهنّ . وهو ما لا يستطيعه إلاّ القليل من الرجال . ولذلك فإنّ النساء لسنَ بحاجة الى العظمة أكثر من حاجتهنّ الى الجمال والفتنة والجاذبية . ففي كل العصور كان النساء هنّ الملهمات للرجال . ولكننا لا نعرف إلاّ القليل مما أوحينَ به . ذلك لأنهنّ يعملنَ أعمالهنّ خلف أبوابٍ مقفلة . ولم يتسرب إلينا إلاّ بضع قصاصات مما أفضينَ به — في ساعة من ساعات النزق — لأصحابهنّ . أو مما بحنَ به بدافع من غرورهن .

فيوم سمحت «كليوباطرة» لنفسها أن تُطوى في بساط . وأن تُحمل الى قيصر الذي غزا بلادها . وفتح عاصمة ملكها . وأن تخرج من بين طيّات البساط . إنما كان هذا منها لمحة من لمحات عبقريتها . وتلك اللمحة هي عندي بمنزلة اكتشاف «كولومبس» لامريكا .

والمرأة لم تكن حقًّا عظيمة في يوم من الأيام إلاّ في ميدان حياتها الخاصة . ولهذا كان من الصعب جدًّا أن تعدّ النساء العظيمات .

ولذلك فلست تجدهنّ عادةً إلاّ في الروايات والصور حيث يقوم واحد من الفنانين — بوحي من عبقريته — فيخلّدهنّ .

إنّ صوت المرأة الخريد الملهم لا يسمع إلاّ في الخفاء .

* * *

ثمّ ما لبثت العازفة على الكمان أن مالت على وليدها . وهي تشير الى الشمس الغاربة وتقول : أنظر ! إنّ المساء قد أقبل . وإنّ الشمس العظيمة لتحيينا تحية الوداع .

فمدّ الطفل ذراعيه نحو النور وهتف قائلاً : امنعوا الشمس أن تغيب ! .

(عن الانجليزية) مبارك ابراهيم

الكيمياء

والطب

(هناك في تلك المعامل الحية العامرة بالنشاط والتوقد حيث يتابع صانع المعجزات تجاربه وبحوثه . . . يكمن البلسم الشافي لجروح البشر ؟!)

❊ من تاريخ الكيمياء ❊ إذا نحن تصفحنا سجل الأيام لرأينا أن تاريخ الكيمياء يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل . . . فالمرحلة الأولى كانت عصر السيمياء « حين كان علم الكيمياء مرادفاً للسموم والشعوذة . . وقد بدأت السيمياء في مصر القديمة. وحين انتشر العرب الغزاة في أفريقيا الشمالية أخذوا عن مصر معرفتها ووسعوا آفاقها . . وفي القرنين العاشر والحادي عشر حين كانت معظم بلدان أوربا تغط في نوم عميق كان العرب ينشئون الجامعات في أسبانيا وأفريقيا .

وكانت المرحلة الثانية عبارة عن تطبيق الكيمياء في الطب فبإجراء التجارب للبحث عن أدوية وعقاقير جديدة ورؤية أثرها على الجسم الإنساني بدأت الكيمياء الحقيقية تأخذ مكانها في الظهور ؟ فالبحث عن الدواء والتطبيب كان له أثر وأي أثر في إنماء علم الكيمياء الحقيقي ومن تلك الآثار القديمة نجد الصيدلي يطلق على نفسه كيميائي .

أما الطور الثالث فهو دراسة الكيمياء كعلم مستقل بذاته .

❊ الرهبان والطب ❊ : وفي أوربا خلال العصور الوسطى كان أغلب العمل الطبي في أيدي الرهبان ما عدا الجراحة التي تركت مزاولتها للحلاقين .. وما كان للرهبان أن يقربوها فهي محرمة لما يراق فيها من دم .. وبذا فقد وجهوا عنايتهم الى تحضير أدوية من الأعشاب الطبية . وقد أنتج هذا أول فرق بين الجراح والطبيب الذي استمر حتى القرن التاسع عشر .

❊ أول صيدلية ❊ : وأول صيدلية بالمعنى القديم أنشئت في لندن سنة ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين وبدأت الأدوية الطبية المحضرة من الأعشاب تأخذ طريقها إلى

الظهور . وفي سنة ألف وخمسمائة وثلاثين ذاعت شهرة طبيب يدعى فيلبس أورالس نيوفراتس الذي كان مشهوراً باسم باراسيليس والذي ترك وصفات بلدية جد غريبة في كتاباته ومذكراته .

وأعقب اكتشاف الأسبان والبرتغال لجنوبيّ أمريكا ظهور أدوية جديدة من أهمها الدواء الذي كان يطلق عليه اسم « قلف بيروفيان » . وفي سنة ألف وثمانمائة وأربعة وعشرين فصلت المادة الفعالة من هذا الدواء الطبيعي وسميت « كينين » التي استعملت في علاج الملاريا وقد حضرت اليوم هذه المادة في المعمل .

﴿ الكيمياء كعلم مستقل ﴾ : وفي أوائل القرن التاسع عشر اكتشف أحد الكيميائيين في باريس عنصر اليود وبذا قلبت الصورة وبدأت الكيمياء كعلم مستقل تقدم للصيدلي أدوية جديدة . وما وافى الثلث الأول من هذا القرن على نهايته حتى كانت هناك مصانع للأدوية تصنع النشادر وحامض الخليك والأثير وكلوريد الزئبقوز وأملاح البزموت واليود . ثم نجح العالم رونج في تحضير حامض الكربوليك (الفنيك) وكان لهذا أهمية كبرى فيما بعد إذ كان أول مطهر استخدمه الطبيب الأشهر « ليستر » في الجراحة .

﴿ إصابات التسمم ﴾ : ولا يمكننا اليوم أن نتصوَّر الفزع الأكبر من إصابات التسمم في العمليات الجراحية في الأيام الأولى . حتى منتصف القرن التاسع عشر ، إذ كان الموت من حمى التسمم هو النتيجة المحتومة للعمليات الجراحية الكبيرة . ففي خلال الحروب كانت عشرون في المائة من عمليات البتر تصاب بالغنغرينة الغازية مسببة الموت . وأثناء حصار باريس في الحرب السبعينية كان كل جرح تقريباً يصاب بالتسمم ، وما كان الجراح بعمله ليؤدي الى تحسين الحال لعدم توافر عوامل النظافة التامة .

ثمَّ حدث تطور . فان ليستر متتبعاً لخطوات باستير بدأ يستعمل المواد المطهرة فكان يضع في حجرة العمليات وعاء يحوي مزيجاً من حامض الكربوليك والماء في حالة غليان فيتصاعد البخار في الجو ويطهره من الميكروبات مما كان له أثر في تقليل إصابات التسمم في جروح العمليات الى مدى بعيد .

﴿ مطهرات أخرى ﴾ : ولم يلبث أن ظهرت مطهرات جديدة مثل فوق اكسيد

الأيدروجين ونترات الفضة وبرمنجات البوتاسيوم والفورمالين محلول مائي (للفورمالدهيد) واليسول (وهو مستحضر من حامض الكربوليك) .

وظلت الكيمياء تعمل لخدمة الطب والبشرية . ففي سنة ألف وثمانمائة وست وثمانين وجد الباحثان كالن وهب وكانا يجربان مادّة النفتالين أثر هذه المادّة الأخيرة في تخفيض درجة حرارة الجسم فحضرا منها مركباً يسمّى « فيناستين » استعمل لعلاج الحمى . كما ظهر الاسبرين أحد الأدوية الحديثة الواسعة الانتشار في نهاية القرن التاسع عشر .

﴿ قصة عقار السالفارسان ﴾ : وإن اكتشاف العالم إرلينج للعقار المعروف باسم « سالفارسان » ليعتبر مثلاً بيناً للبحث الكيمائي الموجه لخدمة الطب . فقد وجد ذلك الباحث الكبير أن ميكروبات المرض التي كان يريد التغلب عليها تمتص صبغة خاصة بدرجة فائقة . وبذا فكر في أن يدخل داخل التركيب الكيميائي للصبغة مادّة سامة كالزرنيخ تمتصها الميكروبات فتسمم وتهلك ، وبعد بحث متواصل شاق ومئات من التجارب المضنية أمكنه في سنة ألف وتسعمائة وعشر أن يحضر مثل تلك المادة وأسماها كما أسلفنا « سالفارسان » وكان لها أثر رائع عظيم في العلاج

﴿ الأنسولين ﴾ : ومثل آخر لفائدة الكيمياء للطب هو إنتاج مادّة الأنسولين التي يداوى بها مرضى السكر .

﴿ قصة السلفاناميد ﴾ : ثمّ هناك عقار السلفاناميد . ومن منا لم يسمع بهذا العقار أن قصته قريبة الشبه بقصة السالفارسان . وإن فصول قصته شائقة فيها من الطرافة والإبداع الشيء الكثير. وسأحاول فيما يلي أن أسردها على القارىء في كلمات قليلة

بدأت القصة في سنة ١٩٠٨ حين قدم العالم الشاب جيلمو رسالة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة فينا ، وكان موضوع رسالته عن تحضير مادة من مركبات القطران تسمى باسم « السلفاناميد » . ثم مضت سنة اكتشف بعدها أحد البحاثة الكيميائيين في مصنع من مصانع الأصباغ في ألمانيا أن هذا المركب السالف الذكر باتحاده مع مركبات كيميائية أخرى يمكننا الحصول على أصباغ تتحد بقوة مع جزيئات البروتينات التي يتكوّن منها الصوف والحرير. وبذا تعطى ألواناً ثابتة . وحدا هذا بعض العلماء إلى القول بأن السلفاناميد قد

تكون له نفس القوّة الاتحادية بالبروتينات التي تكوّن أجسام الطفيليات المسببة للأمراض . ولكن هذا الرأي الجريء لم يخرج إلى حيز التجربة لسنين عديدة .

ثم كانت سنة ١٩٣٦ ، حين بدأ الدكتور ليونارد كوليروك الطبيب بمستشفى الملكة شارلوت بلندن يجرب هذه المادة في علاج الحمى التي تصيب الأمهات غالباً بعد الولادة . والتي كانت تؤدي الى الموت في خمس وعشرين في المائة من الحالات .

عالج الدكتور أربعة وستين حالة بالعقار الجديد فأنقذ حياة واحد وستين امًّا ونقصت نسبة الوفيات إلى أقل من خمسة في المائة .

وقد ألقى ليونارد تقريره عن العلاج الجديد في لندن في صيف تلك السنة في الاجتماع العالمي الذي خصص للبحوث الخاصة بميكروبات المرض .

واتجهت الأنظار الى « السلفاناميد » وبدأت التجارب تترى والبحوث تتتابع لرؤية أثره العلاجي في مختلف الأمراض . تلك التجارب والبحوث التي أظهرت الأهمية الكبرى للعقار الجديد وخدماته الجليلة للانسانية فقد ثبت نجاحه في القضاء على ثلاثين مرضاً من أمراض الميكروبات .

ومن ثمّ خط لنفسه في السجل الخالد لحرب الانسان الكيميائية ضد المرض صفحات عديدة عامرة وكان له أثر وأي أثر في السير بركب الحضارة قدماً إلى الأمام تجاه عالم أسعد وأصح .

﴿ مشتقات السلفاناميد ﴾ : وتتابع البحث فوجد الكيميائيون أن للسلفاناميد تأثيرات سامة على المرضى وبذا حلله العلماء وأخذوا يعملون لانتاج مشتقات منه تقتل الميكروبات ولكنها في الوقت نفسه لا تؤذي الجسم . وتوّجت مجهوداتهم بالنجاح ونجحوا إلى مدى بعيد فيما رموا إليه .

ومن هذه المشتقات التي ابتكروها وحضروها مادة « السلفابيريدين » التي ثبت أن لها أثراً أقوى من المادة الأم في محاربة أنواع خاصة من مرض الالتهاب الرئوي والسيلان . ورغم أن تأثيراتها السامة على الجسم كانت تماثل تأثير السلفاناميد إلاّ أن أثرها الأقوى والأسرع في العلاج يجعل خطرها على المريض أقل .

ثم ظهر السلفاديازول . السلاح القوي الذي كان له أثر فعّال ضد عديد من الأمراض والذي كان أثره السام على الجسم أقل بكثير من أثر أي من العقارين السالفين . وبظهوره لم يعد مرض التهاب البريتون ذلك الشبح المفزع المخيف الذي كانت تخشاه الانسانية .

ولم يلبث الكيميائي أن قدم للبشرية عقار « السلفاديازين » الذي رقأ كثيراً من جراحها نظراً لقوته الفائقة كقاتل للجراثيم ولأثره السام الجد هزيل على أجسامنا ، بل لقد أمكن به استخدامه التخلص من التسمم الناجم عن استخدام عقاقير السلفا الأخرى . ! ! وقد أبانت الأيام والسنين فضل السلفاديازين في الحياة الحربية والسلمية كعلاج للحروق إذ يمكن رشه على الحرق فيزول الألم وتنمو البشرة الجديدة على جناح السرعة .

وقصة مركبات السلفا قصة طويلة عامرة الفصول فهناك أيضاً مركب « السلفاجوانيدين » الذي ركبه العلماء لمحاربة أمراض الأمعاء التي لا قبل للمركبات الأربعة السالفة على القضاء عليها . وللعقار الجديد فائدة عظمى في علاج مرض « الدسنتاريا البكتيرية » ذلك المرض الذي حطم الجيوش خلال التاريخ . أما اليوم فيمكن بتناول هـذا العقار القضاء على أغلب حالاته في مدى يتراوح بين ثلاثة وخمسة أيام يغدو بعدها الجندي معافى قادراً على الجهاد في سبيل وطنه وبلاده .

وبعد .. إن آلافاً من الأفراد يرجع الفضل في تمتعهم بالحياة اليوم إلى مركبات السلفا التي حمتهم من ميكروبات أمراض كانت فاتكة قتالة منذ سنين . ففي مدى خمس سنوات أنقصت هذه العقاقير العجيبة الفائقة القوة نسبة الموتى في المصابين بالالتهاب الرئوي إلى الثلث ، وفي مرض التهاب الزائدة الدودية إلى النصف .

وخلال الحرب العالمية الأولى كان التهاب الأغشية المحيطة بالمخ والنخاع الشوكي أحد الأمراض الخطرة الهائلة الانتشار ولكنه ما عاد اليوم خطراً كما كان من قبل .

وإن مرض السيلان الذي يصيب كما تدل الاحصائيات حوالي اثنا عشر مليوناً من الأفراد في الولايات المتحدة وحدها والذي يؤدي إلى آلام خطيرة عديدة ، من الأمراض التي كان للسلفاديازول وغيره من مركبات السلفا نتائج باهرة في علاجه .

﴿ السر الأعظم ﴾ : والسر في الأثر الفعّال لهذه المركبات لم يفسر بعد . ويبدو لبعض

الأطباء أنها لا تقتل جراثيم الأمراض ولكنّ لها فضلاً في وقف نمو البكتيريا المسببة للمرض وبذا تتيح لكريات الدم البيض أن تهاجم هذه الأعداء .

﴿ **قصة البنسلين** ﴾ : ورغماً عن الخطوات الواسعة التي خطتها البشرية في محاربة المرض بفضل مركبات السلفا فان البنسلين العقار الجديد القاتل للميكروبات الممرضة ، والذي شاع استعماله وذاع قد تفوّق على أسلافه في نواحٍ عديدة . فهو مثلاً أبعد أثراً منها في مداواة الجروح والحروق . ولنقص على القراء قصة البنسلين في كلمات قليلة من بدايتها .

﴿ **بدء القصة** ﴾ : إنّ البنسلين مادّة مقاومة لنمو الميكروبات وتكاثرها وهي إفراز لفطر شائع يسمى « بنسليوم نوتاتم » مشابه للعفن الذي ينمو على الجبن والعيش . وقد اكتشفها مصادفة في سنة ١٩٢٩ الدكتور الكسندر فلمنغ ، وهو عالم انجليزي من علماء البكتريولوجيا ، إذ بينما هو يجري تجاربه وبحوثه الخاصة على إنماء الميكروبات وتكاثرها في أطباق زجاجية خاصة تحوي المواد الغذائية اللازمة ، إذا به يرى أحد المزارع البكتيرية التي أمامه وقد تسرّب إليها فطر دخيل كان له أثر في إذابة ما حوله من ميكروبات .

أثارت هذه الحادثة عالمنا الباحث ففصل الفطر ونقاه تنقية تامة من الميكروبات المحيطة به ودرس تاريخ حياته وألفاه من النوع المسمى « بنسليوم نوتاتم » ثم رباه على أطباق من الزجاج في محلول غذائي خاص ، ولم تمض عدّة أيام حتى بدأ الفطر يفرز مادّة كيميائية صفراء أطلق عليها فلمنغ إسم « البنسلين » نسبة الى بنسيليوم . وقد وجد لهذه المادّة أثر بعيد في قتل عديد من ميكروبات الأمراض التي تهز الانسان بويلات ضحاياها .

﴿ **الأستاذ فلوري** ﴾ : وقد بدأت المحاولات الأولية لاستخلاص البنسلين في حالة نقاء تام عام ١٩٣٢ ولكن كان نصيبها الفشل . ولم تلبث أن تركت هذه البحوث وأهملت حتى سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤١ حين بدأ جماعة من البحاثة في قسم الباثولوجيا الطبية بجامعة اكسفورد — وعلى رأسها العالم الفذ الأشهر « الأستاذ فلوري » — بإجراء تجارب دقيقة على هذه المادّة الصفراء القاهرة العجيبة واستخلاصها وكشف فوائدها العلاجية العديدة .

وقد كللت تجارب الباحثين وبحوثهم بأكاليل النصر والنجاح فأخرجوا الى العالم أنجع عقار علاجي عرف حتى اليوم في الطب الوقائي . وانتخب الأستاذ فلوري بفضل هذا

الاكتشاف العظيم والعمل الباهر عضواً في الجمعية الملكية البريطانية عام ١٩٤١ تلك الجمعية التي لا ينال شرف الانتساب إليها إلاّ جهابذة العلماء الذين يقدمون للعلم خدمات فائقة جليلة ويفيدون الانسانية فائدة عظيمة متميزة .

وفي سنة ١٩٤٣ بدأت بعض مصانع الأدوية العلمية في إنتاج البنسلين وعرضه في السوق للاستعمال العام .

﴿ قوّة العقار الجديد ﴾ : وإن قوّة البنسلين في القضاء على الميكروبات قوّة فائقة رائعة إذ يمكنه أن يبيد ميكروبات المرض حتى ولو أذيب في مائة مليون جزء من الماء . !!

والى جانب قوّته التي تفوق قوّة مركبات السلفا فلم تنتج عنه أعراض تسممية حتى في حالات الجرعات الكبيرة .

وأول صفحة خطتها يد التاريخ لهذا العقار الحديث هي أثره الرائع في مداواة الجروح والقضاء على الميكروبات العديدة التي تجد طريقها من الجو الى هذه الإصابات ، فتسبب في الجروح العميقة مرض الغنغارين الغازي . وتعمّ تقارير الحرب العالمية الثانية بفضل البنسلين العميم في القضاء على هذا المرض الخطير المميت وفي تجنيب المرضى ويلات البتر في الحالات المستعصية منه إذ كان العلاج الوحيد من قبل في تلك الحالات هو بتر العضو المصاب .

والى جانب هذا يستعمل البنسلين في علاج أمراض عديدة مثل الالتهاب الرئوي والسحائي والدفتيريا والحمى المتقطعة والسيلان وغيرها وفي شفاء الحروق .

وفي منتصف سنة ١٩٤٤ أمكن بعد جهود عنيفة إنتاج البنسلين على نطاق واسع فأنشىء ٢١ مصنعاً للإنتاج في الولايات المتحدة وحدها وبذا توافر العقار الساحر للمجتمع البشري في كميات ضخمة تكفي لسد حاجة الجميع . ولم يعد على الأطباء أن يختاروا من بين مرضاهم من يعطى العقار المانح الحياة .. !!

* * *

ولم يتوقف ركب العلم بعد كل هذا الشوط الذي قطعه في القضاء على ويلات الإنسانية وإبادة الميكروبات التي تعكر صفو الحياة بأضرارها وآلامها ، بل تابع تقدمه وتابع سيره . في سنة ١٩٤٠ أعلن الدكتور رين ديبو اكتشاف مادّة كيميائية قاتلة للميكروبات أسماها « جراميسيدين » وباختبارها ثبت أثرها الفعّال في علاج أمراض عديدة كإصابات المثانة

الخطرة التي عجزت مركبات السلفا عن شفائها .

وأظهرت معامل البحث أيضاً مادة « الستربتومايسين » التي كان لها أثر محدود في علاج المرضى بمرض تصلب الشرايين والتي يتنبأ لها بمستقبل في القضاء على مرض التيفويد .

﴿ علاج الملاريا ﴾ : وخلال الحرب الأخيرة حين زحفت القوات اليابانية على الشرق الأقصى أمكنها التحكم في خمسة وتسعين في المائة من موارد العالم في مادة الكينين (أشجار الكينا) التي كانت تستعمل في علاج الملاريا . وهنا بدأ دور الكيمياء ودور جنودها المغاوير . فقد أخذ الكيميائيون في أمريكا يبحثون ويجربون في معاملهم حتى أمكنهم أن ينتجوا دواء حلّ محل الكينين القديم في العلاج وهو « الاتبرين » كما أمكن لأولئك البحاثة الأبطال الذين يقفون خلف أنابيب الاختبار إنتاج مادة كيميائية تسمى « بلاسموكين » تقتل الأطوار التناسلية لطفيليات الملاريا .

ويعلم القارىء أن ناموس الأنوفيلس هو الناقل للملاريا وهو يكثر في البرك والمستنقعات وبذا فإن قتل هذا الوسيط من أهم العوامل في القضاء على هذا المرض . . . وخلال الحرب العالمية الثانية أمكن للقسم الطبي بالجيش الأمريكي إنتاج « قنابل الصحة » وهي قنابل تحوي داخلها أقوى مبيد للحشرات أمكن انتاجه . . . وتتكوّن القنبلة من غلاف معدني يبلغ حجمه حوالي ست بوصات مكعبة بداخله المزيج القتال المجيد الذي يتكوّن من زيت السمسم ومادتين كيميائيتين هما « الفريون » « والبيريثرم » . وبمساعدة هذه القنابل كان في مقدور جيوش الحلفاء ابادة ناقلات الملاريا وغيرها من الحشرات المميتة في معسكراتهم وخنادقهم في مدى جد قصير ، وتجنبوا بذلك ما تعرضت له الجيوش في الحروب الماضية من ويلات الملاريا المميتة ومن أضرارها وآلامها . ذلك المرض الذي كانت ضحاياه لا تقل عن ضحايا القنابل والمقذوفات النارية . . .

وبعد فإن الإنسانية لتعلق آمالها وتعقد رجاءها في القضاء على آلامها ومتاعبها على تلك المعامل الحية العامرة بالنشاط والتوقد . حيث يتابع رسل الرحمة ومبعوثو العناية الإلهية جهودهم الرائعة وجهادهم العنيف ويجرون تجاربهم وبحوثهم في همة وحذق ونشاط . . .

جمال الدين محمد موسى

بين مصر والاندلس

اكتنف أسبانيا في الأعوام القليلة الماضيـة شيء من الغموض عن كنه مذهبها السياسي الذي تنتمي اليـه وسرعان ما كثرت الأقاويل وانتشرت الاشاعات بين الدول على لسان أصحاب الدعايات المغرضة نحو ارتمائها في أحضان الشيوعية . وقد نمت تلك الدعايات وانتشرت من بؤرة الشيوعية في موسكو لالتهام ذلك الحمل الوديع . وقد تكشفت تلك الحالة عن حقيقة واقعيـة كادت تودي بأسبانيا وتجرها الى عجلة الحزب الشيوعي ، كما هي الحال الآن في دول شرق أوربا لسرعة انتشار ذلك المذهب بين الطبقات الفقيرة ، كما هي عادة موسكو في السيطرة على شعب من الشعوب . ولولا يقظة الوعي القومي الذي بعث الاسبانيين الأحرار من سباتهم ليكبحوا جماح تلك الموجة الشيوعيـة التي كادت تطيح بنوع الحكم السياسي في اسبانيا لأصبحت ماركسية .

قضت الحرب الأهلية في اسبانيا التي نشبت بين الحمر « الشيوعيين » كما كانوا يسمون حينئذ ، وبين الوطنيين ، والتي انتهت في ١٦ من يوليه ١٩٣٦ على آمال الشيوعيين وآخر ما تبقى لهم ، على يد أبطال أسبانيا الأمجاد من الحربيين ومعاونة رجال الجيش لهم وعلى رأسهم الجنرال فرانكو الذي جمع السلطة في يده ليسيطر على الحالة هنـاك ويقضي على كل ما يشتم منه رائحة الشيوعية في داخل بلاده .

ولم تكد أسبانيا تتفرغ بعد ذلك لإعادة ما قضت عليه الثورة الأهلية بها من ضروب الاصلاح والتعمير ، حتى أنتاب العالم نوع من القلق وعدم الاطمئنان عن نوع المساعدات التي تلقاها الجنرال فرانكو وأعوانه من الخارج لمساعدته في الحرب الأهلية . وكان للمحور بلاشك الفضل الأول في هـذا الانتصار ولولاه لما استطاع فرانكو أن يخضع الشعب الاسباني لحكمه .

وزاد من حدة التوتر والقلق أن نشبت الحرب العالمية الأخيرة بين الدول الديمقراطية والمحور دون أن تظهر أسبانيا بادرة يشتم منها روح التعاون مع الديمقراطيــة ، كما أجبرها موقعها الجغرافي على عدم الدخول في حرب مع المحور ضد الدول الديمقراطيــة لمواجهتها لسواحل أمريكا وانجلترا ولانتصارات الديمقراطيات أخيراً . فظلت أسبانيا على الحياد حتى لا تغضب كلا الفريقين المتحاربين ، فتكسب احترام الدول من جهة وتجنب البـلاد ويلات الحرب من جهة أخرى ، ولولا ذلك لأحاطت بها الحرب من كل جانب وقضت على ما خلفته الحرب الأهلية من مخلفات البشرية .

وقد انتاب الدول الديمقراطيــة نوع من الشك عن موقف فرانكو تجاه المحور الذي كان له الفضل سابقاً في انتصاره على الشيوعية والذي انتظر المحور منه أن يرد الجميـل إن لم يكن بمعاونته حربيـًا فبالوقوف سلبيـًا نحو أعدائه إلى أن تنتهي الحرب العالمية الأخيرة فخرجت اسبانيا منها ظافرة وتجنبت ويلات الحرب بفضل حيادها . ومع ذلك فقد اعتبرت الديمقراطية تلك الحيدة موالاة للمحور لالتجاء الألمان والغواصات والطائرات الألمانية إلى خلجان وموانى أسبانيا في أيام الحرب .

وما إن استقرت الأمور في نصابها وتكونت هيئة الأمم المتحدة حتى أخـذت الدول الأعضاء بهـا تنظر في علاقتها مع الدول التي أيدتها والتي لم تؤيدها في الحرب الأخيرة ، فأجمعت الهيئة في العام الماضي على اعتبار أن اسبانيا كانت متعاونة مع دول المحور وسحب رؤساء البعثات الدبلوماسية للدول الأعضـاء في الهيئة من مدريد والاكتفاء على الأكثر بقائمين بأعمال .

وكادت تكون أسبانيا منعزلة سياسيـًا عن باقي العـالم ، وشعرت بحرج موقفها وبحاجتها الملحة إليه ، فأخذت تحسن علاقتها مع الدول الديمقراطية بشتى الطرق الدبلوماسية والثقافية والتجارية ، وتهيىء السبيل لتبادل زيارة البعثات والهيئات والأفراد بينها وبين الدول الأخرى وخاصة بعد أن أوضحت موقفهـا بالتغلب على الشيوعية بعد فشل جميع دول غربي أوروبا ، وبذلك صانت غربي أوروبا من طغيان العناصر الشيوعية قبيل الحرب وبعدها .

وقد شهد عام ١٩٤٧ نشاطاً ملحوظاً في تلك الناحية ورقماً قياسيًّا بالنسبة للأعوام السابقة في عدد من زار أسبانيا من الأجانب إذ بلغ ١٢٧ر٦٨٢ جذبتهم شهرة أسبانيا العالميـة التي انتشرت في أرجاء العالم فعبروا آلاف الأميال على متن الهواء وصفحة الماء وبالسكك الحديدية . فعقد بمدريد في هـذا العام كثير من المؤتمرات السياسية والعلمية والدينية الى جانب زيارة الأفراد لها كسائحين أو حضور محاضراتها الجامعية وغير ذلك . فكان هؤلاء خير دعاة لأسبانيا لما لاقوه من راحة تامـة في أثناء تنقلاتهم ولطف المعاملة وخاصة الماديَّـة ، مما زاد حبهم لها ورغبتهم الشديدة في العودة إليها لزيارتها ثانياً وثالثاً ، إذا ما سنحت الفرصة . كما ودّ الآخرون البقاء بها .

وكانت أولى هذه الدول تلك التي ترتبط معها برباط الدم والتاريخ والتقاليد كمصر أو ترتبط معها علاوة على ذلك برباط الدين واللغـة، كدول أمريكا الجنوبية اللاتينية التي تعد المهجر والوطن الثاني للأسبانيين، ولم تقتصر العلاقة بينهما على إرسال البعوث من أسبانيا إلى أمريكا الجنوبية بل حصل العكس أيضاً . فأرسلت أمريكا الجنوبية البعوث الى أسبانيا ليردوا الجميل ولينهلوا من منهلها، فاستقبلتها الهيئات العلمية الجامعية والدينية أحسن استقبال، وأسفرت تلك العلاقات الطيبة عن إنشاء مراكز علمية للأبحاث الاسبانية في بوينوس ايرس بالأرجنتين وليمابيرو وسانتيا جو بشيلي وغيرها .

كما زارها من المصريين هذا العام ٧٧ عضو أكرمت وفادتهم مما ألهج ألسنتهم بالشكر والثناء على الأسبانيين قاطبة ـ ولا غرو فقـد أراد الأسبانيون من تلك الزيارات التي نظموها لتلك الدول، وخاصة التي تمت إليها بصلة، ألاَّ تمضي دون أن يكون لها أبلغ الأثر الدائم في نفسية الشعوب التي تتبادل معها تلك العلاقات من جمهوريات أمريكا الجنوبية التي لا تزال تؤيدها لانضمامها لهيئة الأمم المتحدة .

وكان نتيجة لتوطيد علاقة أسبانيا بالدول الأجنبية ودعوة هيئاتها السياسية والعلمية والاقتصادية لزيارتها وعقـد المؤتمرات بها، أن أخذت هـذه الدول تغير من موقفها إزاء أسبانيا وميلهـا الى الرجوع في قرار هيئة الأمم المتحدة بإعادة علاقتها الدبلوماسية مع أسبانيا الى الوضع الطبيعي ومن بينها مصر التي عينت وزيراً مفوضاً لها بمدريد هذا العام

وكان من الهيئات العلمية التي حظيت بزيارة اسبانيا بعثة من جامعة فؤاد الأول إذ وجهت الحكومة الأسبانية إليها الدعوة على أثر زيارة السنيور جومت ـ المستشرق الأسباني ومدير معهد البحوث العلمية بغرناطة ـ لجامعة فؤاد وإلقائه عدّة محاضرات بكلية الآداب .

فأثارت تلك الزيارة حمية المصريين ، ونبهت مشاعرهم وحركت الذكريات العربية عن مجدهم التليد الذي شادوه هناك .

وتسابق من علم من أبناء كلية الآداب لاغتنام السبق لتسجيل إسمه ليحفظ لنفسه حق الأولية في اختياره عضواً بهذه البعثة الميمونة ، وكان التنافس شديداً لأنها أول رحلة جامعية الى أوربا عقب الحرب العالمية الأخيرة التي شغلت جميع العالم عن القيام بهذه الزيارات في خلال السنوات العشر الأخيرة . كما أنها ستتيح الفرصة لإشباع رغبة قوية لمعرفة ذلك الوطن الثاني للخلافة الاسلامية في الغرب إبان القرون الوسطى والذي تربع فيه المسلمون على عرش الرومان والقوط في أسبانيا زهاء ثمانية قرون من القرن الثامن حتى الخامس عشر الميلادي ، والوقوف على مدى ما تركه العرب هناك من الآثار في الدّم والشكل والتقاليد والآثار العمرانية والاجتماعية ولم يستطع الأسبانيون التخلص منها رغم انقضاء خمسة قرون على حكم العرب فيها حتى اليوم ، ومن تلك الآثار ما سمعناه وما زلنا نقرؤه من شعراء الأندلس وأدبائها وعلمائها من العرب والذي كان لهم الفضل في وضع أسس الحضارة الأوربية الحديثة ، ونبوغهم في كثير من العلوم والفنون ، منبع الحضارة الحديثة .

وحدّد اليوم السادس عشر من شهر يوليه ١٩٤٧ موعداً للقيام بهذه الرحلة وأعلن شروط الإنتساب وحدّد عدد الأعضاء المطلوبين باثنين وعشرين عضواً من الجنسين الناعم والخشن ، ثلثهم من أساتذة الكلية ومعيديها ، والثلثان من خريجيها وطلبتها بالتساوي . كما حدّد قيمة ما يدفعه كلٌّ منهم مع تفاوت قيمة المبالغ المطلوبة بالنسبة للأساتذة والخريجين والطلبة .

ومن فاز بتلك الرحلة فقد كان فرحاً منبسط الأسارير مبتهلاً لتلك الزيارة الكريمة ، مستبشراً بزيارة أهل غاب عنهم طويلاً ، وانصرف يعد العدّة لسفر طويل

البعثة على ظهر الروضة

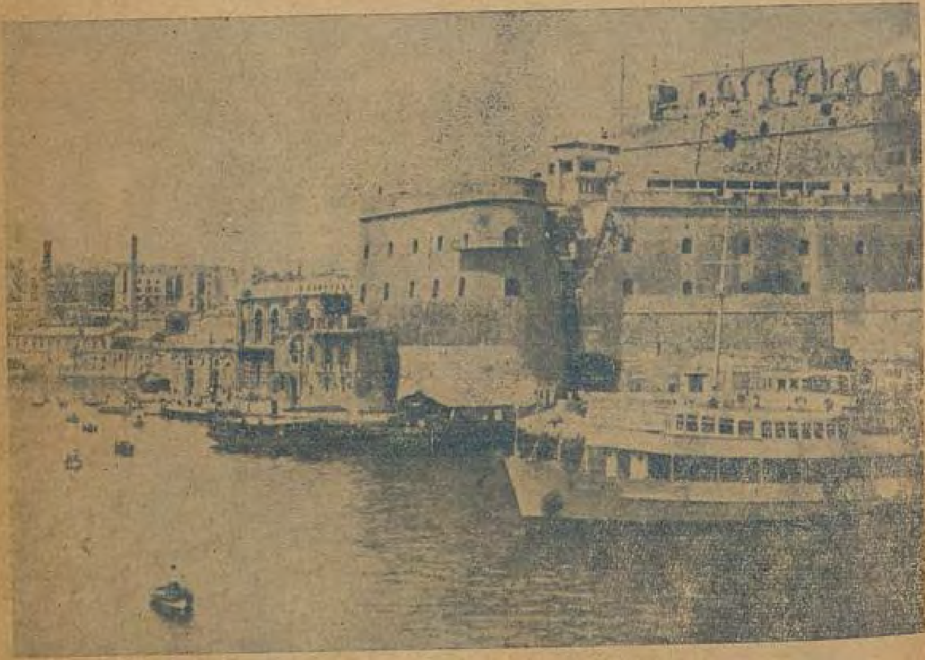

ميناء مالطة ويبدو عليه آثار التدمير والتخريب

وفي مساء اليوم السابق للرحيل اجتمع ذلك النفر – على غير معرفة من أكثرهم اللهم إلا من أقلية ضئيلة – للتعارف والتزود ببعض الإرشادات الضرورية لهذا السفر وتسلموا تراخيصهم بالسفر عبر حدود البلاد التي سيجتازونها . فجمع ذلك السفر شملهم ووحّد بين غبطتهم وشعورهم وألّف بين قلوبهم وجعل منهم كتلة واحدة تشعر بشعور واحد نحو هدف معين

وفي صباح اليوم الموعود التأم شمل اثنتين وعشرين عضواً في عقد قدر له ألاّ ينفرط إلاّ حين يعود ثانياً الى مصر بعد شهر ونصف . اجتمع ذلك العقد عند الرحيل وحوله أقارب اثنتين وعشرين عائلة وغيرهم من المودعين من أساتذة الجامعة ومن بينهم عميد كلية الآداب الحالي . فعجّ بهم رصيف محطة مصر واختلط صوتهم بصفير القطار يشاركهم في توديعنا ويحملوننا تحياتهم الحارة إلى أحفاد العرب من الأسبان

أذن الوقت بالرحيل وودّع كل منا قريبه وصاحبه وسار القطار صوب الاسكندرية على بركة الله وعند الظهر انتقلنا من أرض مصرية إلى سفينة مصرية تديرها شركة مصرية (بواخر البوستة الخديوية) ويعمل بها موظفون مصريون ما عدا قبطانها ووكيله فهما انجليزيان .

مكثنا بها سبعة أيام في الذهاب وستة أيام في العودة . أي ما يقرب من ثلث مدة الرحلة جميعها ، لم نشعر خلالها بأننا انتقلنا إلى وسط غريب عنا بل كنا بين أهلنا وعشيرتنا يقدم لنا الطعام اخواننا من النوبة ويعد لنا الفراش زملاؤنا من المصريين ويشرف على الناحية الصحية طبيب مصري يسامر هذا ويسري عن ذاك . كما يعاون بحرية المركب ضباط حديثو التخرج من مدرسة البحرية بالاسكندرية ويستكملون تمرينهم العملي على ظهر البواخر المصرية يمارسون بأيديهم كل ما يوكل إليهم من أحقر الأعمال إلى أرقاها ليلموا بكل دقائق المركب فنالوا رضا جميع المسافرين من مصريين وأجانب لنشاطهم الجم وقدرتهم الحسنة وتفانيهم في خدمة الجميع . ويشمل النشاط الملحوظ كل موظفي ومستخدمي السفينة إذا ما أقلعت من ميناء أو قربت منه حيث يستلزم ذلك العمل تضافر الجهود لرسوها في مكانها المعد لها في الميناء منعاً من اصطدامها أو حدوث ما لا تحمد عقباه .

خرجت سفينة الروضة بعد الظهر من ثغر الاسكندرية تقل ما لا يقل عن الثمانماية راكب معظمهم من المصريين ، وقد اشرأبت رؤوسهم على ظهرها يودّعون الاسكندرية وساحل مصر الشمالي بكثبانه الرملية وخاصة تلك التي عند ساحل مريوط حتى غابت مصر عن الأنظار واكتنفتنا أمواج البحر من كل جانب واختلطت زرقتها بزرقة السماء .

دقّ ناقوس الغذاء فهبطنا إلى صالة الطعام وخصصت منضدتان كاملتان في جانب من القاعة عرفت باسم بعثة الجامعة تجتمع إليها أربع مرات كل يوم ، لا لتناول الطعام فحسب ، وإنما لتواصل فرحها ومداعبة بعضهم الآخر بما عنّ له من نكات تناسب المقام . وكثيراً ما كانت تعلو صيحاتهم على أصوات الملاعق والصحون مما جذب أنظار بقية السَّفْر من أول لقاء معهم .

هرعنا إلى سطح السفينة لنستمتع بمنظر البحر والسماء ومداعبة الموج للسفينة وتلاطم الحيتان على جنباتها . كان الجو عليلاً ، يهب علينا أولاً نقيّاً صافياً فتدخر منه السفر ما تسمح به رئتهم من الامتلاء ، ثم يهب على سواحل مصر فتشوبه الشوائب لاختلاطه بدخان المصانع ورمال الصحراء .

وبينما السفر في غمرتهم ساهون والبحر من حولنا يأخذ بالألباب ، فيشغل كل شاغل عن نفسه ، إذ بريح عاصفة قاصفة ، يتبعها موج مضطرب ينفر مما عليه وينوء بحمله ويريد أن يتخلص منه في أقرب وقت مستطاع ، فازدادت حركة السفينة في جميع الاتجاهات كلما ازدادت ضربات الموج لها ، وانتشر الهرج والمرج في السفينة بين السفر فأصيبوا من دوار البحر مرة واثنين وثلاثاً ألزمهم مضاجعهم وأوشكت الشمس على المغيب ، ترسل آخر أشعتها فتسخر في هدوء من السفينة والسفر والبحر . كأن الريح من حولها لا يعصف وكأن أمواج البحر لا تضطرب وكأن ألواح السفينة لا تبعث الأنين الذي لا يؤذي الناس ونحن ننفق أكثر الوقت من غضب الريح واضطراب البحر وسخرية الشمس الهادئة التي تملؤها الكبرياء مضطجعين في فراشنا حتى إذا دنا الأصيل وانحدرت الشمس نحو الأفق ، ازداد اضطراب السفينة وازداد خوفنا تبعاً لذلك ، فاضطررنا إلى ملازمة الفراش حتى تهدأ الريح ، وتستقر السفينة على صفحة الماء .

وفي الصباح عاد الأمن والنشاط الى النفوس واستقبل المسافرون اليوم الثاني بأمل باسم واستأنفوا مرحهم وفرحهم وكأن لم يحدث لهم شيء من قبل

انقضت بقية أيام السفر بحراً في هدوء تام وراحة منقطعة النظير كما انقضت في غير قلق ولا اضطراب ، وأقبل السفر على اللعب بأدوات الرياضة والتسلية الموفورة بالسفينة . ومما يؤسف له إن إذاعتنا المصرية لم تسمع خارج مصر كأنها خلقت داخل حدود مصر لتسمع المصريين فقط رغم أهميتها البالغة في الدعاية لنا والعرب أجمعين . ولم يترك السفر وشأنه لا يعرف أين مقرّه بالنسبة للعالم الذي هو فيه ولا الموانى التي قربوا منها أو بعدوا عنها فأعدّت إدارة السفينة لهم خريطة ملاحية للبحر الأبيض المتوسط وضع على طريقها الملاحي علم صغير متحرك يثبت كل يوم في الوضع الذي تصل إليه السفينة في البحر .

وفي صباح اليوم الرابع كان العلم يؤذن بقربنا من جزيرة مالطة ، كما لاح لنا من بعد أول هاتف يدعونا الى البر إذ حلقت الطيور تدعونا لدخول مياه مالطة الأقليمية . فظهر في الأفق الشمالي الغربي أعلا قممها ثمّ ما لبثت أن ازداد حجمها فانبرت قاعدتها عن حافة طباشيرية تبلغ طولها ٩٠ ميلاً تمتد على طول ساحلها . وهي البقية الباقية التي ظهرت على سطح الماء من سلسلة جبال العصر الجيولوجي الثالث والتي كانت تصل شبه الجزيرة الإيطالية بجزيرة صقلية من جهة وجبال الأطلس الممتدّة في تونس والجزائر ومراكش بشمال أفريقيا من جهة أخرى ، فتقسم حوض البحر الأبيض المتوسط قسمين منفصلين .

وكان لموقع مالطة الممتاز في منتصف الطريق بين شرقي البحر المتوسط وغربيه أثر هام في تاريخها الطويل ، فاستولى عليها الفينيقيون ليؤمنوا تجارتهم من قراصنة البحر الذين كانوا يهدّدونهم على طول الطريق بين فلسطين وأسبانيا ـ ولا تزال آثار الفينيقيين بمالطة ممثلة في بعض قبورهم ومخلفاتهم من أواني فخارية وآلات حجرية ومنازل وغيرها .

كما لجأت إليها العناصر المسيحية الفارين من الإضطهاد الديني في أول عهدها في أثناء الحكم الروماني واعتصمت بمخابيء Catacombs تحت الأرض لإقامة الطقوس الدينية المسيحية ، ومن رفات من يستشهد في توابيت في جوانب المخابيء .

ورأى العرب أهمية مركزها الاستراتيجي فأغاروا عليها ثلاث مرات انتهت في المرة

الثالثة بالاستيلاء عليها عام ٨٧٠ ودانت لهم مالطة ما يقرب من القرنين حتى استردَّها الكونت روجر حاكم صقلية ، وقد منح العرب المالطيين حكماً ذاتياً تحت اشرافهم ولم يتدخلوا في حقوقهم إلاَّ بقدر ما تسمح به الحال لتأمين تجارتهم. ومع ذلك فقد ترك العرب آثاراً كثيرة ممثلة في الكتابة الكوفية واللغة العربية التي تحتل الآن ما يقرب من نصف اللغة المالطية . ولم يستطع الاستعمار الإنجليزي في العصر الحديث أن يغير من الألفاظ العربية إلاَّ كتابتها بأحرف لاتينية . وكان ذلك واضحاً في أثناء حديثي مع أحد المالطيين الذين اصطحبوا سفينتنا الى انجلترا ومن بين الكلمات العربية مثلاً كلمة نجم وشمس وبحر وليل ونهار وغيرها .

مرّت السفينة بين حاجزي الأمواج لترسو في داخل ميناء مالطة الشهير والذي يعد أكبر مرسى للأسطول الانجليزي في البحر الأبيض المتوسط . هبطنا أرضها أمام الجمرك الذي يقع في أسفل أحد قلاعها الشاهقة المبنية على ربوة عالية تشرف على البحر مباشرةً . اخترقنا أحد أبوابها الضخمة الى داخل الجزيرة لقضاء بضع ساعات بها ولتفقد معالمها فأسعفتنا إحدى سيارات الامنيبوس العامة وهي الوسيلة الوحيدة للانتقال بها من منطقة سليمة الى فاليتا العاصمة التي تتوسط الجزيرة وهو قسم حديث العمران تشغله المباني الفخمة الحديثة . لم تتناوله الحرب الأخيرة بأي أذى . بينما يمتاز القسم الساحلي على الميناء بالقدم وأبراجه العالية الشاهقة التي ترجع الى العصور الوسطى. وقد كانت هدف الطائرات النازية لتدمير الأسطول الأنجليزي الراسي في الميناء واشعالها النار في مخازنه وأسلحته فنال ذلك القسم كثير من التخريب والتدمير ظهرت آثاره جلية في كثير من المنازل والكنائس والمصانع والمخازن المجاورة .

وأهم ما لاحظناه على المالطيين تلك الأنواع التي هرعت الى السفينة لركوبها ـ ولا يدل مظهرهم على سعة الجاه وعلو المقام ولا حتى قدرتهم على دفع أجور سفرهم . إذ كانت أغلب ملابسهم لا تزيد على قميص تكشف فتحته عن صدر خشن أسمر ظهرت عليه آلام الحياة ومتاعبها ونقشت عليه الهمجية والفوضى وحطة مركزهم الاجتماعي وشماً لا يمحى مدى الحياة — لقد اضطروا لركوب البحر لضيق جزرهم بهم فلفظتهم الى الخارج بحثاً

عن مورد رزق يوفر لهم القوت الضروري بدلاً من بقائهم في بؤس جزيرتهم مع ضيق يدهم يشاطرون بقية سكان الجزيرة البالغ عددهم ربع مليون نسمة والذين يعتمدون على الأسطول الانجليزي وحركة السفن التي ترسو في مينائهم . وكان من الطبيعي أن يلجأ هؤلاء الى الانجليز للانضمام الى بحريتها للعمل بأساطيلها وممتلكاتها .

وقد رافق هؤلاء العمال نفر قليل من الشباب المالطي الذين أكملوا تعليمهم الثانوي وسافروا لاستكمال التعليم الجامعي بانجلترا . ويمتاز هؤلاء المالطيون بطابع خاص يختلف عن صفات الشعوب الأخرى المحيطة بهم . فالمالطي متوسط القامة طويل قليلاً عن النساء ، أسود الشعر أدعج العينين ، أسمر البشرة وتكاد تظهر فيهم بعض الصفات الزنجية من العناصر التي استوردت اليهم في العصور التاريخية ، ويمتازون بسرعة التأثر والمكافحة في الحياة وحب الانتقال وراء الربح القليل .

لم تبزغ شمس اليوم السابع ، وترسل أشعتها على الأفق الشمالي والشمالي الغربي حتى بدت من بعد سحابة داكنة أخذت ترتفع في الأفق تدريجيًا ويزداد حجمها كلما اقتربنا منها ، ولم تستغرق وقتاً طويلاً حتى أشرفنا على خليج ليون حيث ميناء مرسيليا ، وتكشفت تلك السحب عن قمم بعض جبال الألب البحرية والتي يظهر بعضها فوق سطح الماء على شكل جزر صخرية شديدة الانحدار ، استغلها الفرنسيون للدفاع عن مينائهم ببناء القلاع عليها والفنارات لإرشاد السفن حتى لا تصطدم بها . وأشهر هذه الجزر جزيرة شاتونيف الشهيرة بقصر مونت كريستو .

كما حددت هذه الجزر الطريق نحو الساحل ويدل مظهرها وشدة انحدارها على شدة عمق المياه وصلاحية الميناء لرسو أكبر السفن بها .

وما إن اقتربنا من الميناء حتى ظهر برج كنيسة نوتردام ، وقد ظهرت حولها آثار تخريب قذائف الطائرات للميناء ومخازنه .

رست في الميناء مركب مصرية تحمل ركاباً مصريين . ما أحسن تلك الجملة وما أجملها على مسمع كل مصري وخاصة حينما ترسو سفينة في مواني أوربا ، ويرى منظر علمها الأخضر بنجومه الثلاث يرفرف على ساريتها على ملأ من الناس جميعاً ، يفخر بقوميته ويعتز بوطنه مزهوًا بألوانه بين أعلام السفن الأجنبية الأخرى المحيطة به .

كان الوقت العاشرة صباحاً حينما هبط السفر أرض أوربا ، وكان طريق جنوب فرنسا الطريق الوحيد المؤدي الى اسبانيا وأسهلها . أما الطريق الآخر عبر شمالي أفريقيا فكان متعذراً وكثير التكاليف ، أما الطريق البحري إلى مواني أسبانيا مباشرة فانه غير ميسر لعدم

انتظام ذلك الطريق بين مصر وإسبانيا ، لذلك اتبع السفر طريق جنوبي فرنسا بواسطة سكك الحديد الممتدّة بين مرسيليا والحدود الفرنسية الأسبانية الذي استغرق ما ينيف عن الإثنتي عشرة ساعة متوالية — ويسير في ذلك الطريق قطار واحد يبدأ رحيله في التاسعة مساء من كل يوم عند ما تغرب الشمس بعد مغيبها في مصر بساعتين .

ماذا نصنع في أثناء هذا النهار الطويل الذي سننفقه في مارسيليا إلاّ أن ننتقل من قهوة إلى مطعم ومن مطعم الى قهوة ونتسكع في شوارعها لاستطلاع غريبها — إن الحياة هناك فيها عناء وغناء ولا ينقطع ما يعرض عليك من الجهد ولا ما يثير في نفسك من المتاع وكلاهما يصحبانك بعد فراقها ، لأنك لا تتركها إلاّ وقد تزوّدت الشيء الكثير مما يثير الألم ويترك اللوعة ومما يتعلق به من الآمال وتحيا به القلوب .

لقد كانت آثار الحرب الاقتصادية ضاربة أطنابها في الحياة الفرنسية فالمواد الغذائية شحيحة ومرتفعة الثمن ، وتباع بالبطاقات . فمثلاً بلغ ثمن الرغيف (الفينو) الشديد السمرة حسب التسعيرة أربعة قروش وفي السوق السوداء تسعة قروش بينما كان ثمنه في مصر زمن الحرب . عشرة مليمات فقط . كما بلغ ثمن البيضة الواحدة سبعة قروش . أما السكر فقد بيع الكيلو منه في السوق السوداء بأربعين قرشاً .

وهكذا ارتفعت أثمان الحاجيات الغذائية بنسب مختلفة مما جعل حياة الغرباء فيها متعسرة ونفرنا من البقاء بها حتى لا نهلك جوعاً .

* * *

والناظر الى مدينة مرسيليا يجدها مبنية على سفوح مرتفعات تبدو شوارعها غير مستوية فهي إما منحدرة أو تنتهي بجبال كالشارع الذي تقع فيه نافورة كانتيني الشهيرة كما هو مبين بالشكل المرافق أو يصعد الى بعض الشوارع ، ومرافقها العامة كمحطة سكك حديد مرسيليا بدرج يبلغ الثمانين درجة . ومرسيليا كغيرها من موانئ العالم تضم كثيراً من أجناسها لما تضمه من الشركات الملاحية المختلفة فئات غير متجانسة في عادات وأخلاق أهلها مما يدعو الى الحذر في معاملتهم .

وفي تمام الساعة التاسعة مساء تحرّك القطار متجهاً صوب الجنوب ملازماً لساحل البحر المتوسط الغربي فبلغنا مدينة تاريون في منتصف الساعة الثانية صباحاً . وعند هذه المدينة يبتدئ الخط الحديدي الذي يتجه غرباً الى مدينة تولوز ثم الى بوردو على ساحل خليج بسكاي .

ولذلك اضطررنا الى التخلف بمدينة تاريون على رصيفها نعاني بردها وصقيعها حتى

الساعة السابعة صباحاً لنستقل القطار الذي يتجه مباشرةً الى الحدود .

سار ذلك القطار بمحاذاة الساحل مباشرةً بين حقول الكروم التي تشتهر بها فرنسا تارةً وبين المستنقعات تارةً أُخرى حتى اقتربنا من منطقة البرينيه التي ظلت زمناً طويلاً حائلاً منيعاً بين فرنسا وأسبانيا وكانت تلك الجبال مناطق التجاء لكثير من العناصر والسلالات البشرية كسلالة البصك التي احتفظت بمميزاتها الجانسية منذ لجأت إلى تلك المنطقة في العصور القديمة فارة أمام الهجرات الأوربية التي استوطنت أوربا فيما بعد . كما التجأ حديثاً الجمهوريون والارهابيون الأحرار من الأسبان لمقاومة دكتاتورية فرانكو ، ولهم قوات مسلحة تبلغ الخمسين ألف رجل مسلح على الحدود في انتظار الوقت المناسب لدخول أسبانيا طوعاً أو كرهاً .

واستطاع الاسبان التغلب على الطبيعة فذللوا المواصلات عبر هذه الجبال وحفروا الأنفاق الطويلة الواحد تلو الآخر حتى بلغ جملة ما اخترقه القطار منها ثمانية استغرق اختراق الواحد منها نحواً من عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر بالرغم من سرعة القطار التي بلغت التسعين كيلومتراً في الساعة. ولم نلبث على هذه الحال حتى بلغنا مدينة سيربير على الحدود الفرنسية على سفح جبل تفصل قمته بين فرنسا واسبانيا ، بينما يقع على السفح الآخر مدينة بوربو الاسبانية وكانت الحدود بينهما مقفولة ، مما اضطر السفر الى تسلق سفح الجبل الفرنسي بإحدى السيارات حتى القمة حيث الحدود الفرنسية ، وعلى بعد بضعة أمتار منها تقع الحدود الاسبانية ، فترجلنا تلك المسافة لنستقل سيارة أخرى كانت في انتظارنا لتهبط بنا السفح الاسباني — تشبه تلك السيارة إلى حد كبير عربات « البولمان » الامريكية التي نراها في القاهرة وهي أحسن ما عندهم من هذا النوع كما سنبين بعد أن اسبانيا فقيرة جداً في السيارات الأمريكية الفخمة التي تزخر بها شوارع مصر وذلك لانقطاع التبادل التجاري بين اسبانيا وأمريكا . لذلك كانت أغلب سياراتها حتى الحكومية قديمة كتلك التي نراها من مخلفات الجيش .

هبطنا ذلك السفح الاسباني وهو لا يقل جلالاً وسحراً عن السفح الفرنسي (كما هو مبين بالشكل) إذ تنتشر في أسفل سفحه المباني المطلة على ساحل البحر المتوسط تحيط به خضرة متنوعة يعجز عن وصفها البيان وخيال كل فنان . فكانت تلك المناظر أول لوحة فنية طبيعية رائعة مما وهبها الله لاسبانيا على طول الساحل الشرقي حتى برشلونة .

محمد رجب البيلي

حياتي !...

حياتي ، وما تجدي عليَّ حياتي   ولم يبقَ منها غير حلم سُبات !!
تكشِف عما قد توارى مغيّباً   من العيش ، مطويًّا مع الظلمات
وما عُمر الإنسان الاّ سحابة   تمرّ بجدب في القفار مَوات
إذا أمطرت ، أحيت بريّق غيثها   بقاع الروابي ، من حَياً ونبات (١)
وإن أمحلت ، أقوت وبدّد شملها   هباء ، وأضحى جمعُها لشتات
كذاك أرى الأحياء بين منعّم   يطيب بما يأتيه من ثمرات
وآخر في البأساء يكدح آملاً   نجاحاً ، فما يجني سوى الحسرات !!

***

حياتي ، حياة الحائرين ، فصبحها   شبابٌ ، تقضّى مُبهمَ الخطوات
ودبَّ دبيب الشيب يثقل وطأه   ويغتال قسراً مشرق البسمات
أتابع ذكراها الدفينة آسفاً   على ما مضى في غمرة النزوات
وما كان من لهوٍ ومن صَبواتٍ   ومن لذةٍ أدَّت الى عثرات !!
وأنظر خلفي لا أرى غير دارسٍ   عفا ظله من صحبةٍ ولذَات
فأين الليالي الصادقات وعودها   تلين وتضفي عاطر النشوات ؟!
وأين الرياضُ الحو ، والزهر ضاحكٌ   تنفس فيما هب من نسمات ! ؟
وأين الجمال الرحب ملء جوانحي   طوائر تشدو أعذب النغمات ؟ !
وأين قرابيني ، وهيكل معبدي   ومحراب ترتيلي ، وركن صلاتي ؟!
تناءت كآثار الأصيل ، وخلفت   مَرَايا لأشباحٍ مضت وسِمات
تعاودني منها مناقل صورة   أطلُّ إليها ساهم النظرات
وألمح أهوال الخطوب ، وقد محت   نضارتها من صحّةٍ وشذاة (٢)
فتبدو بما خطّت على صفحاتها   ضمور جبين ، وابيضاض شواة (٣)

---

(١) الحيا هنا بمعنى الخصب (٢) الشذاة — القوة (٣) الشواة — جلدة الرأس

وقيل تجاريب السنين وعلمها   وليس تجاريبي سوى هفواتي
فيا دهر، هات الرزء همًّا مبرّحاً   يصول على الجسم المهدّم، هات !!
فلست أبالي إذ أرثّت شبيبتي   بغادٍ تولى بالسرور وآت !!

***

حياتي، حياة الناس أدرج بينهم   على الظلم من طاغٍ يجور وعات
فما زال حكم الغاصبين يسودهم   وللبطش والإرهاب سوط أذاة
فلا عدل إلا أن يذلّ ضعيفهم   ويمشي على الأشواك والجمرات
ويلقي البلاء المرّ يوهن سعيه   وفي روحه ماضٍ من العزمات
وما نقموا إلاّ لصرخة صائح   يرى الحق فيهم واضح القسمات
يساوره من عقله وجنانه   مطاف خيالٍ أو منار حصاة (١)
تملّاه في أشعاره ونثاره   خواطر مثل النار مستعرات
تعبّر عما في القلوب من الأسى   وما في طوايا النفس من زفرات
فيرمى بإعراض الزمان، ويبتلى   بكيد حسود، واغتياب عداة !!

***

حياتي، حياة الغابرين كأنها   بريق تلاشى في سنا الومضات
ففي الذاهب العافي شبيهٌ بمقبل   وفي الحاضر الوافي مثال غداتي
نحلّ على الدنيا كما حلّ قبلنا   مواكب للأطماع مشتجرات
شخوص كأمواج الخضم تلاطمت   وعادت رماماً في بطون فلاةِ
فأعمار أقوام تجيء وتختفي   وما امتاز منهم عاصمٌ بنجاة
وأنقاض أجيال، ومأساة عالَم   تدور بأصداء لها ورواة
وهل أنا إلاّ في السُّرى متقاذفٌ   مع الركب مصفوداً بيوم وفاة
فإن كنت شيئاً في الوجود مجسَّماً   فسوف تودّى في الرفات رفاتي !!

(القاهرة)   عبد السلام رستم

---

(١) الحصاة — الرأس والعقل

أنفس ضائعة

مقتبسة من ملحمة قصصية

للشاعر لونجفيلو

« قصة ايڤانچلين واقعية ، وسيظل الضمير الانجليزي يحس وخزات التأنيب كلما ذكرها ويعاني من ألمها فوق ما يعانيه مما تجترمه السياسة البريطانية من غدر وعدوان . فقد تنازلت فرنسا لتلك الدولة عام ١٧١٣ عن مقاطعة أكاديما (المعروفة باسم نوفاسكوتشيا الآن) فاضطرَّ قطَّانها الفرنسيون الى الاذعان للقوة، وحلفوا يمين الولاء قسراً للتاج البريطاني ، واحترفوا الزراعة بعد أن انتزع حكامهم الجدد أسلحتهم وعددهم . ومرَّ بهم الزمان وهم قابعون في ظل الهدوء والأمان الى أن وقعت الحرب الفرنسية الانجليزية في كندا ، فوقعت خلالها فجائع هذه القصة المروعة . »

* * *

هذه هي الغابة على فطرتها الأزلية ، تطيف بها الريح ، فتهمهم أدواحها همهمة الوحي في صدور الأنبياء . وإذا ترامى اليها هدير المحيط متصاعداً الى أعلى صخور الشاطئ ، أجابه زفيرها ونواحها الرهيبان .

هذه هي الغابة على فطرتها الأزلية ، فأين قلبها الخافق ؟ ما لها موحشة كأن لم يتردد اليها صياح صائد ، أو وقع خطوات عابر ؟ أين المنازل المشرقة ذات الأسطح المخروطة ؟ وأين ما استطابه فلاَّحو أكاديا بين جدرانها من متع الحياة الآمنة الهادئة ؟ ... عصفت يد الغاصب بتلك الدور ، وبعثرت سكانها في أصقاع نائية الأطراف ، وذرتهم كما تذرو الريح أوراق الشجر الذابلة ، وتقذف بها في طوايا الأبد . نعم ، لم يبق من مدينة « جران بريه » الفاتنة إلاَّ ذكرى تملأ القلوب حسرةً وأسىً

إلى الذين يؤمنون بالحب المعتصم بالرجاء رغم تنمُّر القضاء ... إلى الذين يخشعون

لسطوة الجمال ، ويثقون بولاء المرأة متى أحبت . . . إلى هؤلاء أسوق هـذه القصة التي مازالت أدواح أكاديا تبكيها متناوحة . قصة المدينة التي ذاقت نعيم الحياة حقبة من سالف الزمان ، ثم . . .

عاش أهل « جران بريه » البسطاء في ظل الحب والإخاء ، لم يلوّث طهر ضمائرهم طمع أو حقد أو جزع . فلم تعرف أبوابهم الأقفال ، ولا نوافذهم القضبان . كانت دورهم مفتحة الأبواب كقلوبهم ، وكان أغنى أغنيائهم فقيراً ، وأفقر فقرائهم في بسطة من عيشه .

وفي طرف المدينة بالقرب من خليج ميناس أقام الشيخ « بلوفنتين » في منزل أنيق مشرف على حقوله الخصبة وقامت على تدبير شؤون منزله ابنته ايفانجلين ، قبلة أنظار الشباب ومهبط أحلامهم . أما هو فقد حمل على كتفيه العريضتين سبعين عاماً من عمره فلم ينوءْ بها ، ولم ينحنِ تحت ثقلها ... كان كالدوحة الباسقة كلّلت الثلوج البيض أعاليها . أما هي فلم تتجاوز عامها السابع عشر . كانت تتنفس تنفّس الجؤذر الجزوع ، وترنو بعينيها السوداوين رنوةً ، وإذا خطرت في الطريق أنيقة الملبس رشيقة الخطوة ، أضرمت من لاعج الجوى في قلوب الفتيان قدر ما نفثت من قارص الغيرة في قلوب الفتيات . ولم يزل لتناسق سماتها وعذوبة عباراتها ، وحلاوة اشاراتها تأثير الموسيقى في نفس كل من يتطلع اليها .

كانت تلك الدار الخشبية قائمة على سفح جبل وسط مناظر ساحرة، يمتدُّ طريق معبّد من عتبة بابها الى الخميلة الخضراء القريبة منها ، ويتصل امتداده حتى تغيب معالمه في فسحة الغياض المترامية الأطراف . واستطالت أمام الدار شجرة جميز متجعّدة اللحاء ، متوشّحة الجذور البادية على سطح الأرض وانتشرت في الفضاء الحائل بين الدار والخميلة بيوت الدواجن وعشاش الطيور ، وبدت وراءها حظائر الدواب والنعم وتجاوب هناك صياح الديكة وهي تتبختر بارزة الصدور في عزّة وخيلاء ، وامتزج بالخوار والصهيل .

هدأت الحياة وطابت في تلك البقعة المباركة ، وصفت القلوب وأخلصت لبارئها كما صفا وأخلص بعضها لبعض ، ونعِمَ صاحب تلك الدار بما حباه الله من خيرات، وبما أفاضته عليه ابنته ايفانجلين من عطف ورعاية . ولم تنقطع وفود الزائرين من شباب المدينة عن

غشيان تلك الدار ملتمسة متعة العين وغذاء الروح. ولم يعرف كل فتى منها حين كان يطرق الباب أهي دقات قلبه التي تملأ أذنيه أم طرق قبضة الباب الحديدية. فالسعيد السعيد من كان يتاح له لمس يد فاتنته الحسناء، أو مسح طرف ثوبها الحريريّ. وأسعد السعداء من كان يحظى منها بابتسامة رضى يفترّ عنها ثغرها المشرق.

ولم يلبث « جبريل بن لاجينيس » الحدّاد أن فاز دون قرنائه بما تاق كافتهم إليه. فقد خصّته من دونهم بحبها النقيّ الطاهر. وقرأ في عينيها كما قرأت في عينيه معاني حب مكين متبادل. ووافى الربيع فغرّد قلبُ كل من العاشقين كما غرّدت الأطيار، ورفّ كما رفّت غلائل الأزهار. ثم أعقب الربيع الصيف فزادت وقدته اللافحة وقدة حبهما المشبوب وتبادلا في لياليه الناعسة مناجاة أعذب من انسكاب أضواء نجومه، وأرقّ من هبّات نسيمه المحمّل بعبير الياسمين، ولم يعد هذا الحب الذي تلألأ بشيره في لحاظ العاشقين وباحت بسرّه بسماتهما، يخفى على أحد. وراق للوالدين أن يكابد ولداهما لوعة الهوى، واستقرّ رأيهما على أن يصلا شملهما برباط الزواج.

وسرعان ما حلّ الشتاء، وقصر يومه ذو الغيوم، وطال ليله ذو الشجون. وحدث في ذات أمسية من أمسياته أن جاء « لاجينيس » يزور صديقه بلوفونتين وجلس الشيخان الهرمان الى جانب المدفأة يفرك كل منهما يداً بيد. وكانت الألفة المتصلة بينهما قد ازدادت توثّقاً منذ اتفقا على الارتباط بصلة المصاهرة ولكن وجه الحدّاد كان في تلك الليلة مكفهرّاً على خلاف ما كان يبدو عليه عند لقاء صديقه من بشر وإيناس، وسأله الفلاّح الموسر عما به، فأجاب بصوت منبعث من سويدائه:

— إن قلبك العامر بالإيمان والاخلاص والأمل لا يعرف الهمّ واليأس اللذين يشفّان غيره من القلوب، وينذران بالويل والثبور.

وصمت الحدّاد برهة حشا أثناءها غليومه تبغاً وأشعله ثمّ واصل حديثه وهو ينفخ دخانه في الفضاء:

— ألقت السفن الانجليزية مراسيها في مياهنا منذ أربعة أيام، وصوّبت إلينا أفواه مدافعها التي لا تزال تهدّد أمننا وسلامتنا. وكم قاسى مواطنونا في هذه الأيام الأربعة

من مخاوف وآلام وأشجان ! وقد تضاعفت هذه الليلة شدتهم على أثر ما أذيع من عزم قائد تلك السفن على تلاوة بيان غداً في ساحة الكنيسة يكشف فيه مقصده من هذه الزيارة المشؤومة .

وابتسم بلوفونتين ابتسامة هادئة وقال :

— لعل زوارنا الإنجليز أميلَ الى المسالمة مما نظن . . لعلهم جاءوا يلتمسون بعض قمحنا ليسدُّوا به حاجة أهل جزيرتهم الى الطعام .

وتنهد الحداد تنهداً عميقاً وأجاب :

— أهل المدينة لا يشاطرونك هذا الرأي . . . أنسيت ما حلَّ ببلدتيْ « بوسيجور » و « بور رويال » ؟ . . . لقد نزع الغاصب سلاحنا فلم يبق لدينا إلاَّ مطارق كمطرقتي ، ومناجل كمنجلك . وأصبح مصيرنا رهن مشيئته .

وردَّ الفلاح السليم الطوية :

أحسب أننا أمنع جانباً ، ونحن عزل ، من المتحصنين بالحصون والقلاع ، فما دمنا لا نملك الإيذاء فكيف يكون لنا أعداء ؟ دع هذا الوجوم وابسط أسارير وجهك . فما يجمل بك أن تكتئب وعرس ابنك وابنتي موعده غد

وسمع العاشقان هذه العبارة الأخيرة من الغرفة المجاورة . وكان الفتى الوسيم ممسكاً بيد فتاته الحسناء، فشدَّ عليها ، ثمَّ وشَّج إصابعه في أصابعها ، وحلق الخيال بكليهما في أجواء عالم مسحور . وتلاقت نظراتهما الطافحة بالعطف والحنان فتبادلت أرقَّ معاني المحبة والولاء وطال تأمل كل منهما لأليفه في إعجاب وإعزاز ، ودار بينهما همسٌ رقيق لا يعرف عذوبته إلاَّ من صفت نفسه مثل صفاء نفسيهما ، وطهر حبه طهارة حبيهما .

وأقبل القسُّ في هذه الأثناء يحمل تحت إبطه إضبارة ، ويمسك بدواة وقلم . وصبغ الحياء وجه الفتاة حال وقوع عينها عليه . ورحب به الفتى وهو لا يكاد يحتمل فيض النعيم الذي غمر نفسه . ودبَّ في عروق الشيخين دبيب الحياة وهما يتسابقان الى تهيئة مقعد وثير له . وحملت إليه إيفانجلين منضدة وضعتها أمامه ، وقربت إليه المصباح الزيتيّ . وشرع القس يكتب وثيقة الزواج المشتهى . وما انتهى من مهمته حتى قدَّم إليه « جبريل » قدحاً

من الخمر ، وشرب الجميع نخب هذا الحادث السعيد . ورفّ في جو الغرفة رفيف سعادة لا عهد لها بها .

وأوت العروس السعيدة الى مضجعها بعد انصراف الضيوف ، وأطفأت المصباح مكتفية بلألاء القمر المترقرق من خلال نافذة الغرفة . . . وما كان أجملها وهي في ثوب نومها الشفاف عارية الساقين الناصعتي البياض! . ولم يدُر في تلك الساعة بخلدها أن حبيبها لم يرافق أباه الى داره ، بل بقي تحت ظلال الخميلة شاخص الطرف الى نافذتها ، طامعاً في اجتلاء طلعتها المحبوبة من وراء النافذة . لم تفطن الى وجوده قريباً منها ، ولكنه كان مع ذلك أقرب اليها شقة . . . كان ملءَ قلبها وملءَ خاطرها .

وزخرفت لها أحلامها الذهبية صوراً خلاّبة لحياتها المقبلة ، فبدا لها المستقبل كما تبدو جنة الخلد لعابد متبتل . ولكن الظلام ران على الغرفة فجأة فانقبض صدرها وأسرعت الى النافذة فرأت القمر يخرج من وراء سحابة معتمة ، وسرعان ما ملأ نوره الغرفة ثانية فأعاد اليها البهجة من جديد . . .

اختار بلوفونتين الخميلة ليقيم تحت أغصانها المهدّلة حفلة عرس ابنته . وتوافدت عليها في الصباح التالي جموع الأقارب والأصدقاء . وتعالى العزف ودار على وقعه الرقص . وخفّ الطرب بالشيوخ مثلما خفّ بالشباب . واهتزت الأعطاف وهفَتْ الأقدام وهي تتبع رنّات النغم المتّسق . وبينما المهرجان في عنفوانه إذ بصوت مزعج فيغمر أنغام اللهو والطرب ، ويسمّر أقدام الراقصين ، ويكتم الضحكات في الأفواه . ويملأ القلوب فزعاً .

دقت طبول جند العدو في ساحة الكنيسة ، فهرعت اليها الجماهير لتقف على المصير الذي اختاره لها الغاشم . وغصّت تلك الساحة على سعتها بالمجتمعين ، واعتلى القائد الانجليزي منصة عالية ، وواصل الى أعلاها شامخ الأنف مقطب الجبين . ووقف هناك في أنفة وإباء ، وتلا بيانه بصوتٍ نمّ عن الصلف والكبرياء ، وطأطأ المستمعون رؤوسهم إذ سمعوه يقول :

« لقد وسعتكم رحمة مولاي الملك فلم تلق منكم غير نكران الجميل . على أن صاحب الجلالة لن يجازيكم الجزاء الوفاق على جحودكم بل شاء قلبه الرحيم أن يهب لكم الحياة . . .

لكنه رأى أن يجرّدكم مما ملكت أيديكم من دور وأرض وحيوان ومتاع، وإن يشرّدكم في مختلف الأصقاع . . . واعلموا أنكم الآن أسرى في قبضة يدي ، فلا يحدّث أحدكم نفسه بالإفلات منها . وعليكم التوجه الى مرسى سفننا قبل ظهر غد استعداداً للرحيل ، ومن يتخلف منكم يتعرض لأقسى جزاء . . . هذه هي مشيئة مليكي ، ولا مردّ لمشيئته »

وارتعدت فرائص المستمعين ، وناءت أرجلهم بحملها . فقد عصفت تلك الكلمات بهم عصف الرياح الهوج حين تهبّ على غرّة ، وسادهم الوجوم برهة ، ثم تعالت الولولة على أثره من كل مكان . ومكّنت حدّة الغضب من نفس الحدّاد ، ورفع وجهه المصطبغ بدمه الفائر ، وصاح بصوتٍ يتهدّج انفعالاً . « سحقاً للانجليز الطغاة . . . الموت لمغتصبي أملاكنا وأموالنا » وما كاد الشيخ يتمّ عبارته حتى انهالت عليه لطمات الجنود القساة . ولم تزل به حتى سقط على الأرض وعفّره التراب .

وعادت فلول الشعب التعس الى دورها ، وبكى بعضها وهو يمشي الهوينا مقوّس الهامة وأرغى بعضها الآخر وأزبد ، وظلّ وقد طاش صوابه يتوعّد ، أمّا إيفانجلين الوديعة فقد سارت في استسلام ممزوج بأمل غامض باهت ، وتسامح غير بشري .

ومرّت على القوم ليلة لم يمر أحلك منها على منكود . ليلة لم يذق فيها طعم النوم جفن . اللهمّ إلاّ جفون الأطفال الناعمي البال ، ولاحت تباشير الفجر بعد طول المطال ، وزخرفت سحب الأفق بشتى الألوان الزاهية ، وابتسم الكون ابتسامته الصباحية الخلاّبة فلم يتفتح لها قلب ، ولم يفترّ لها ثغر . واشتدّت الحركة في مختلف الدور . وأخذ قطّان كل دار في إعداد ثيابهم وزادهم استعداداً للرحيل ، وذرعوا غرفهم جيئةً وذهاباً وكأنهم آلاتٌ صمٌّ تتنقل .

تقاطرت طلائع القوم على الميناء ثمّ تدفقت وفودهم فاكتظت بها الرحاب . واحتشدت هناك أمة كتب عليها النفي والتشريد الى آخر فرد منها . وعلقت اللحاظ لا تتحوّل عن السفن التي جاءت للتنكيل بالمستسلمين المستكنين . وكادت القلوب تتمزّق وهي تحاول الافلات من أبدانها والعودة الى مغاني صباها ، ومسارح هواها . ولم تنج نفس من مخالب الألم المفترس إلاّ نفوس الأطفال الذين احتضن كلٌّ منهم لعبته ، وهشّ لفكرة الرحيل ،

ودهش لشبح الألم الذي رآه بادياً على وجوه أهله الكالحة .

وجلست إيفانجلين فوق حقيبتها متجلدة ساكنة ، ورأت جبريل مقبلاً عليها فوقفت لاستقباله . وما تبينت شحوب وجهه حتى خانها جلدها ، وانهمرت دموعها على خديها ، ثم ابتسمت له ابتسامة تفرّ من إشراقها الأحزان . ثمّ تباعدت عنه قليلاً لأنها رأت والدها قادماً . وانطفأت ابتسامتها إذ لاحظت التغيير الفاجع الذي طرأ عليه . لقد غاض رونقه وغار خدّاه ، وزاغ بصره ، وثقلت خطوته من عبء الهمّ الجاثم على كتفيه . وركضت إليه وارتمت بين ذراعيه وغمرته بعبارات التدليل والإعزاز حين أدركت أن عبارات التشجيع والمواساة لا تجدي .

وحلّت الساعة الرهيبة ، وأقبل البحّارة الإنجليز صوب الشاطئ في مراكب صغيرة لينقلوا أولئك الشهداء الى السفن التي أوشكت أن تقلع بهم الى منفاهم المجهول . ووقعت في هذه الأثناء فاجعة خلت من مثل فداحتها أفجع القصص الخيالية . فقد ساد القوم هرج ومرج على أثر وثوب البحارة الى الشاطئ واجتذاب من تصل إليه أيديهم ودفعه الى مراكبهم . وجمح الذعر بالنساء والأطفال فركضوا بين كرّ وفرّ صارخين مولولين . وانتزعت الزوجات وسط هذه الفوضى من أزواجهن ورأت الأمهات أولادهن في السفن ينادونهنّ في توسل ، ويمدون اليهنّ أيديهم في ضراعة . وهكذا فرّق القدر الأثيم بين الحبيبين ، فرمى بجبريل الى إحدى السفن المنشورة القلاع ، وغادر ايفانجلين على الشاطئ تجاهد مجاهدة من يقاوم التيار لتصل الى من تحب وأقلعت السفينة بفتاها وهي لا تزال على اليابس تناضل بغير جدوى .

بقيت إيفانجلين وأبوها مع من بقي بالشاطىء وأذعن كافتهم للأقدار ، ولم يقوَ أحدهم على الحركة ولم يجرؤ على الكلام ، وصمتوا صمت الموت ، وأنصتوا لهمهمة الأمواج وهي ترجع دويّها المثير للأشجان .

وبلغ من حزن بلوفنتين أن جمد خاطره ، ونضب معين نفسه ، فلم تعد تخطر له فكرة عابرة ، ولم تهتز نفسه لعاطفة طارئة ، ودللته ابنته فلم يهشّ لها ، وخاطبته فلم يجبها ، وقدّمت له الطعام فعافه . وجمد في مكانه لا يرفّ له جفن ، ولا تبدر منه بادرة تدل على أنه

على قيد الحياة . وجالت الفتاة بعينيها فيمن حولها فوجدت أنظار الاشفاق عالقة بها . وبلغ التأثر بها كل مبلغ ، فسالت الدموع على خديها في سكون فاجع .

وشاء العدوّ الغاشم ان يصيب أولئك المنكودين بمحنة جديدة بعد أن توهموا أنهم بلوا آخر ما في جعبة القدر من شقاء فقد بدت لهم ألسنة من النار تندلع من ناحية مدينتهم وتمكن الرعب من ايڤانچلين فأقبلت على أبيها لتطوّقه وتحتمي في أحضانه ، فرأت ما ضاعف رعبها ، رأته ملقىً على الأرض جثة هامدة ، فصرخت صرخة مدوية . وانتقلت الأنظار من منظر الحريق اليها ، فشغلتها الكارثة الطارقة عن سابقتها ، وسارع القوم الى الفتاة يهدئون من روعها وهم في مثل انفعالها ومضضها . واتجه بعض الفتيان الأشداء الى الساحل الرملي فحفروا للشهيد رمسه ، وعادوا اليه فحملوه الى مقره الأبدي ، وسار الجميع خلفه واجمين مهمومين . وأضاء الحريق المستفحل جنبات الصخور والتلال وخضّبها بلونه الدموي ، ووُريت الجثة التراب على ضوء المدينة الملتهبة . وما أشرق الصباح حتى أقلعت السفن الانجليزية ببقية أهل «جران بريه» لتلقي بكل جماعة منهم في ميناء . وخلفت وراءها رماد المدينة السعيدة ، وأشلاء شيخ أحسن ظنه بالضمير الانساني .

* * *

مرت سنوات عديدة على إقلاع السفن الانجليزية بقطّان أكاديا وتشريدهم في بلاد مترامية الأطراف ، وتشتتهم هناك بغير مأوى ولا أصدقاء ولا أمل في الحياة . وقد هام هؤلاء المشرّدون طوال السنين على وجوههم ، وقطعوا فجاجاً من الأرض بعد فجاج في التماس نجعة يأوون اليها .

وكثيراً ما كانت العين تقع بين بعض فلول هؤلاء الضاربين في فضاء الله على فتاة لم تتجاوز سنّ الشباب ولكنها فقدت رونقه ، ولم تتجرد من الحسن ولكنها فقدت ريعانه . كانت وحيدة تمتد أمامها صحراء الحياة موحشة خالية إلا من صفائح رموس الشهداء .

كانت تنتقل مسرعة من بلد الى بلد ، منقبة عن ضالتها المنشودة ، فلا يكاد التعب

يقعدها في مكان حتى تضطرم في قلبها حمى الرغبة في لقاء حبيبها المفقود، فتهب الى مطيتها وتعود فتبدأ رحلتها التي لا تنتهي. وكم من قولة عابرة أو همسة في أذن أو اشاعة واهية جددت في نفسها أعرض الآمال ونقلتها من مشرق تلك البلاد الى مغربها.

مضى ربيع في إثر ربيع وايڤانچلين الضاربة في كل فج لا تفرق بين فصول الحب والجمال وفصول الكآبة والذبول.. وفي إبان ربيع تبرّجت الطبيعة خلاله مزدانة بأبهى حللها تهادى على صفحة فرع من فروع المسيسيبي العظيم مركب جمع بُناته ألواحه من حطام سفينة من عابرات المحيط تحطمت على أحد الشواطىء الصخرية وحمل ذلك المركب حطام أمة كانت تسكن « جران بريه » في سالف الزمان. ووقفت الفتاة المقيمة على عهد حبها بين ركابه تخترق أقاصي النهر بنظراتها الفاحصة المتعطشة الى رؤية شاهد أو علم يبشرها بقرب لقاء من كرست له حياتها. ثم غلبها النوم فرأت في الكرى حلماً أزاح عن صدرها عبئاً جثم عليه زمناً وملأ قلبها الموحش الموجع غبطة واستبشاراً. رأت مركباً آخر مقبلاً صوب مركبها ولمحت على ظهره فتى أحلامها وآمالها يجول بطرفه باحثاً عنها مثل بحثها هي عنه، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فرقة طالت حتى كادا يقنطان لطولها من تلاقيهما ثانية.

ولم تكذب حواسها التي صورت لها هذا الحلم. فقد كان حبيبها قريباً منها في تلك الساعة حقاً. كان في مركب يتجه الى الشرق، وقد مرّ بمركب ايڤانجلين وهي نائمة. وتهدلت عليه أشجار الغابة فلم يره أحد، كما فات ركابه أن يروا المركب الآخر. وهكذا تقابل الحبيبان وافترقا بعد ملاحقة شاقة مضنية دامت سنين، ولم يفطن أحد منهما لهذا اللقاء العقيم.

سار المركب حتى خرج من ظلمة الغابة، ورأى من فيه نور الشمس البهيج على حقول القمح الشاسعة. وسرّحت ايڤانچلين طرفها في الفضاء الرحب وبادلت الأفق المنير إشراقاً بإشراق، إذ كانت لا تزال وضّاحة الجبين، متفائلة بحلمها السعيد. وبلغ المركب المدينة المنشودة، وسألت الزوجة العذراء مستقبليها عن زوجها قبل أن ترد تحيتهم. ووقفت منهم على الحقيقة المريرة ورنقت سحابة من الهم والأسى على وجهها الجميل، فأشفق عليها رفقاؤها، وهوّنوا عليها الخطب بقولهم إن زوجها لم يزل قريباً منها، وإنهم سيرافقونها راجعين وراءه أدراجهم حتى يلحقوا به.

وبدأت المطاردة من جديد، وعاد المطاردون فاجتازوا الاصقاع والأمصار التي جابوها من قبل، ولكنهم كانوا هذه المرة في اعقاب الحبيب التائه، وشاهدوا في نهاية

كل مرحلة قطعوها آثاره . وضاعفوا سرعة سيرهم دون سأم أو كلل ليلاحقوا تنقله السريع الخاطف . وكان الأمل الخلاّب يخادعهم طيلة نهارهم ، ولا يكف عن مداعبتهم أثناء منامهم . وكم من مرة رأوا عن بعد دخاناً يتصاعد من جانب خيمة منصوبة في العراء فحسبوا أنهم شارفوا على نهاية شوطهم ، ولكنهم كانوا لا يجدون عند وصولهم الى مكان النار الموقدة إلا الرماد والدمن .

وكانت الفتاة الشقية تناجي حبيبها فتقول «أتكون ياحبيبي على هذا القرب ، ولا تستطيع عيناي أن تجتليا محيّاك ؟ . . أتكون على هذا القرب ولا تستطيع أذناي أن تسمعا صوتك ؟ ! هأنذا أرى آثار أقدامك التي اجتازت هذا المكان منذ لحظات . وهأنذا أكاد أستنشق عبيرك الذي يملأ هذه الأرجاء ، ولكني لا أستطيع مع ذلك إن أنعم بلقياك » !

مرّوا أثناء طرادهم الشاق المضني بدير منفرد في جوف تلك البطاح الموحشة ، وسألت الزوجة الوفية كبير رهبان ذلك الدير عن زوجها ، فأنبأها بأنه مرّ به ، ولم يمكث إلا ريثما يتأهب لرحلة صيد قد تستغرق فصل الخريف ، وأنه لا بدّ عائد في الشتاء . ونصحها أن تبقى في بيت الله لتستريح حتى يعود إليها خليلها . وشايع رفقاؤها الكاهن رأيه حتى لم تجد مناصاً من قبول ما عرض عليها . وانتظرت حلول الشتاء بقلب واجف ونفس لهيفة ، وطالت عليها الساعات بلْهَ الأيام . وحلّ الشتاء ، وانتظرت فرجة الأمل بعد طول الشقاء . ولكن الشتاء انسلخ بعضه في إثر بعض دون أن يعود إليها حبيبها . ثم انقضى شتاء بعد شتاء والحبيب لا يؤذن بالرجوع . وكثيراً ما التقطت أذنها في بحر هذه السنين الموحشة أساطير هندية كانت تملأ نفسها في بعض الأحايين قلقاً وجزعاً واشفاقاً ، وكانت تملؤها في أحايين أخرى هدوءاً واستسلاماً . سمعت قصة الفتى الوسيم « موويس » الذي التقى بفتاة فاتنة في ليلة قمراء ساحرة ، وتمكّن الحب من قلبه وقلبها ، ولم تلاحظ الحبيبة وهي مأخوذة بسورة حبها أن حبيبها مخلوق من الجليد الخالص . وتبادل كلاهما مواثيق الحب والولاء ، وتعاهدا على الارتباط بالزواج . وقضيا الليلة سابحين في أجواء الآمال والأحلام . وعندما أشرق الصباح خرجا الى الحقول ليستمتعا بسحر مناظر الطبيعة ، ودفء الشمس الساطعة . وكانت خاتمة الأحلام والآمال قريبة ذريعة ، فقد لاحظت الحبيبة وهي ترتجف هلعاً أنّ حبيبها أخذ يذوب شيئاً فشيئاً ، وبدأ التقلّص يشوّه وجهه ، ثمّ طمست تلك القسمات الجميلة طمساً ، وسرعان ما تبدّد الحبيب المرتجى ، وتوارى عن العيان .

ومن تلك الأساطير أيضاً أن الحسناء « ليتينو » هامت وجداً بطيف آسر الحسن كان يخرج من الغابة في أصيل كل يوم ، ويوافيها عند شاطىء غدير موسيقيّ الخرير ، ويبادلها

حبًّا بحب ووفاءً بوفاء ، ثم يغادرها بعد انقضاء الهزيع الأول من الليل ، ويعود أدراجه الى جوف الغابة الرهيبة . وكانت نفس الحسناء تنازعها الى تتبع خطاه واللحاق به في مأواه

وفي ليلة سطع بدرها ، وفاض سحرها ، عجزت الحسناء عن مغالبة هواها ، فاندفعت الى الغابة وراء طيفها المحبوب ، غابت طلعتها المشرقة بين ظلال الأشجار الكثيفة الباسقة ولم تقع عليها بعد ذلك عين إنسان .....

كانت إيڤانجلين تنصت في تهيب الى تلك الأساطير ، ويخيل إليها أن المكان المحيط بها يتحوّل الى بقعة مسحورة . وكانت تجد تارةً بعض العزاء فيما تسمع ، وكانت تستسلم تارة أخرى ليأس موحش أليم .

وطفق نهمها الروحي يحفزها ثانية الى استئناف البحث والتنقيب فهبت في لحظة ضيق من الركن الذي قبعت فيه تلك الحقبة الطويلة ، وهجرت الدير رغم إرادة من فيه . ورآها الناس تهيم من جديد في شتى المدن والكفور سائلة مستقصية عن سيد فتيان أكاديا . ودبّ الوهن الى جسمها ووخط المشيب شعرها وارتسمت آثار الغضون على جبينها وانقلب حبها الحارُّ الملتهب الى حب هادىء مخلوط بالحزن الدفين . وخبا أملها إلاَّ انه كانت تنبثق خيوط منه بعد خيوط بين حين وحين .

وانتشر مرض الطاعون في سنة من السنين العصيبة وعظم بلاؤه ، فوجدت إيڤانجلين بعض العزاء في تمريض المصابين بذلك الداء الوبيل . والتحقت بأحد المستشفيات وقامت على العناية بالمرضى . وكان قلبها الرحيم يجود على أولئك المنكودين بكنوز عواطفه الكريمة فينشر بينهم بعض الطمأنينة الروحية والراحة الجسدية في حين أنها لم تعن هي بطمأنينتها وراحتها ، بل كانت تجدهما في ذلك النصب والعناء .

وبينما كانت تطوف ذات صباح كعادتها بأسرّة المرضى رأت مريضاً مشرفاً على الموت جيءَ به منذ قليل وبينما هي تحدّق في وجهه مشفقة اذ اكفهرَّ وجهها وكاد قلبها يكف عن الخفرق . فقد لمحت من وراء جبينه المجعد وعينيه المنطفئتين ذلك الفتى الذي وقفت على حبه حياتها . . .

وانكفأت عليه مجهشة بالبكاء ونادته بصوت متهدج « جبريل » فلم يكن منه الا أن ارتعشت رموش هدبيه ، وتساقطت دمعتان على خده الشاحب . وسرعان ما استسلم الى سكون عميق .

محمد مفيد الشوباشي

الشعر المعاصر

على ضوء النقد الحديث

عرض وتقييم : بقلم علي الراعي

أخرجت المطبعة العربية في الأيام الأخيرة كتاباً بالغ الأهمية للمشتغلين بالأدب العربي خاصة ، وللمثقفين بوجه عام ، هو كتاب «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» للأستاذ الباحث مصطفى عبد اللطيف السحرتي .

وترجع أهمية الكتاب — في المحل الأول — إلى أنه يستعرض للمرة الأولى في تاريخ الأدب العربي مدارس النقد المعروفة في الغرب فيعرف بها القارىء ، ويدرسها معه ، ثم يسعى الى تطبيقها على نماذج عديدة من الشعر العربي المعاصر ، تطبيقاً أميناً عالياً ، لا تحيز فيه ولا إجحاف ، ثم هو بعد ، تطبيق الشاعر المتذوّق ، والفنّان الواعي ، الى جانب الباحث المحايد ، الذي يضع الأقيسة والمعايير أمامه ، ويحب ألاّ ينساها

والكتاب — من هذه الناحية — علامة كبرى مميزة من علامات الطريق في الأدب العربي على إطلاقه ، وفي الأدب العربي المعاصر بوجه خاص . ذلك انه ليس خافياً أن النقد العربي — بالمعنى المفهوم المعاصر لكلمة « نقد » لم يكن له وجود قبل السنوات الخمس عشرة أو العشرين الأخيرة ، وحتى في هذه السنوات ، لم يكن هناك «نقد» بالمعنى الذي ينصرف اليه الذهن في اللغات الأجنبية الحية . . . كان ثمّ تشريح لفظي ونحوي ، لأبيات الشعر ومحاولة لتسقط الأخطاء اللغوية والنحوية ، ثم تقدير شخصي متعسف للقصيد ، بقصد التقليل من شأن صاحبها ، إذا كان المراد التهوين ، والارتفاع به الى السماكين إذا كان المراد التهويل . وفي أحوال قليلة ، وفي آخر تلك السنوات العشرين ، ظهرت محاولات متناقضة تهدف الى تقييم الشعر بعيداً عن الهوى والغرض ، ولكن هذه المحاولات كانت تصدر عن أساس شخصي أكثر مما تصدر عن مقاييس موضوعية ، يمكن أن تتخذ محوراً

للبحث ، بحيث يكون للناقد والقارىء مفهوم واحد مشترك للمهمة التي هما بصددها فيستطيع الناقد أن يتكلم لغة مفهومة ، ويمكن للقارىء أن يفهم عنه هذه اللغة .

أهمية كتاب «الشعر المعاصر» إذن ، هي انه يقدم هذه المقاييس ، هذه اللغة الواحدة المشتركة ، بين الناقد والقارىء ، الى الأدب العربي . وهذا في حد ذاته عمل ضخم . ذلك أنه ليس من السهل على باحث في مثل مركز الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي أن ينهض بهذا العبء وحده ، فما بالك وهو لم ينهض به فقط ، بل سار به قدُماً ، وأوغل في الطريق نحو صياغة عقلية علمية في النقد العربي ، عقلية ، لا تكتفي بأن تقرأ عن مدارس النقد المعروفة في الغرب ، بل تهضم هذه القراءة وتمثلها ، وتخرج منها نتاجاً جديداً ، هو هذا الروح العلمي المنصف الذي امتاز به تقدير الأستاذ السحرتي للنماذج الشعرية العديدة التي أوردها في كتابه الكبير .

ولنحاول أن نتفهم أكثر من هذا معنى عبارة «عقلية علمية في النقد العربي» وهي عبارة قد يجد فيها غير قليل من الأدباء ما يحتجون عليه . وذلك أن النقد في رأيهم لا يمكن أن يكون علماً ، بل هو عمل شخصي بحت ، يعتمد على صفات شخصية ، كذوق الناقد واطلاعه ، ومكانته . وما الى هذا من رصيد خاص ، لا يمكن نقله للقارىء أو المشتغل بالأدب . هذه العقلية العلمية هي بالضبط المقابل للرصيد الخاص .. هي الرصيد العام للأدب وهي مجموعة الحقائق الموضوعية التي يمكن للناقد أن يحيل القارىء عليها في تقديره للعمل الفني ، فتكون بذلك القدر الثابت المشترك بين الناقد والقارىء ، وتصبح أساساً للتفاهم يمكن بناء النقد عليه باضافة الرصيد الخاص للناقد ، ومن ذوق وتجارب واطلاع .. وبدون هذا القدر الثابت لا يمكن لأي نقد جدّي أن يقوم ، بل تظهر كل محاولة لتقييم العمل الفني بمظهر الحكم الشخصي التعسفي عليه .

من هذا تتضح للقارىء أهمية كتاب الأستاذ السحرتي ، فهو يتصدّى لتوفير هذا الرصيد العام في أدب لم يكن له مثل هذا الرصيد قط ، وهو بهذا لا يخرج كتاباً في النقد كما يخرج أي ناقد أجنبي كتاباً في النقد ، يعتمد فيه على مئات الكتب التي خرجت من قبل ، ويستخدم فيه أقيسة ومعايير مفهومة لديه ولدى قرائه ، بل هو في الواقع يشق ترعة أو

ينحت طريقاً في جبل ، وهو يستحق منا نفس المديح ونفس التهنئة التي يصح أن توجه الى كل من يختط سبيلاً جديدة .

وليس أدل على أهمية كتاب الأستاذ السحرتي ، من أنه وقد عرّف قراء العربية بالأقيسة النقدية الجديدة ، قد أتاح لنا أن نستخدم هذه الأقيسة بالذات في نقد كتابه دون خوف من أن يكون هذا النقد كمن يتحدث الى قوم بلغة لا يعرفونها ، فيصبح كلامه ضرباً من العبث .

***

بدأ الأستاذ السحرتي كتابه بمقدمة أوضح فيها حال النقد في النصف الأول من القرن العشرين ، كيف أنه « ساير المذهب الاتباعي » الجامد ، الذي سار عليه بعض القدامى من قرون وقرون ، فما كان الأدباء ينقدون على منهج قويم ، وانما كان يهدم بعضهم بعضاً .. وكان أكثر النقد — ولا يزال — زوراً وعبثاً ، هو في أغلب الأمر ، رأي يصدر عن مجاملة أو جهالة ، ثم ينتقل من فم الى فم .. وخلص الباحث من مقدمته هذه الى بحث مذاهب النقد كما هو معروف في الآداب الأجنبية ، فتحدّث عن المذهب الفني وهو المذهب الذي ينظر في العمل الفني الى روحه ، وصدقه ، واصالته وأسلوبه ، دون اعتبار يذكر لموضوعه أو لنحوه وصرفه . وبعد أن طبق هذا التعريف العام على الشعر ، وتحدّث عن التجربة الشعرية ومثّل لها من بعض شعراء المهجر ومصر والشرق العربي ، انتقل الى الحديث عن المذهب الواقعي وهو ثاني المقاييس التي تستخدم في تقدير العمل الفني في النقد الحديث .

يقول الأستاذ السحرتي إن « المذهب الواقعي في النقد لا يختلف مع المذهب الفني الا في شيء واحد هو موضوع القصيد ، فهو لا ينظر ، كما ينظر المذهب الفني ، الى التجربة الشعرية والصياغة والانفعال والفكر والخيال فقط ، وانما يدخل في اعتباره الموضوع ، فان كان الموضوع لا يهتم بالحياة وأحداثها وآلام الناس وأشواقهم وآمالهم فهو فن رديء ، فن مخلخل للمواهب ، مخدّر للناس ، فن لا غاية من ورائه الا تسلية جماعة ضئيلة مترفة — والفن الجيد هو المعبر عن أشواق الناس وآمالهم ودنياهم .

ورجال المذهب الواقعي يضعون للفن منازل ، فالفن الذي يعبر عن الوقائع العابرة أقل

منزلة من الفن الذي يدعم الحقائق المعمرة الباقيـة ، وهذا الفن الأخير يعدُّ في رأيهم فنًّا عظيماً اذا صيغ بأسلوب قوي مقنع » .

ويمضي المؤلف بعد هذا العرض الواضح للمذهب الواقعي في النقد ، فيطبق هذه الآراء على شعر بعض شعراء الشرق من أمثـال محمد رشاد راضي ، ونزار قباني وحافظ ابراهيم وغيرهم ، فيسمي ما يورده من شعر الأولين ، وما يذهب مذهبه من الشعر ، شعراً « مطبوعاً بطابع التدهور والانحلال » فإذا خلص من هـذا الى شعر حافظ ، فهو عنده — وعلى ضوء المذهب الواقعي ، شعر « يصف واقع المجتمع ، الذي تطل منه على حوادثه الجسام ، ونراها رأي العين » . وبعد أن يشـير الى شعر أبي القاسم الشابي وأبي شادي وبدوي الجبل . وبعض الأدباء الأحرار ممن يجد أنَّ شعرهم حافل « بواقعات الحياة وأناشيد الحرية والديموقراطية » يستطرد الى الحديث عن المذهب الفقهي في النقد فيقول :

« النقد الفقهي ، أو المدرسي أو الجامعي إن صحت التسمية . هو النقد الذي سار عليه أغلب النقَّـاد القدامى ، وهو ينظر في الشعر الى نحوه ، وصرفه ، وعروضه ، وبيانه ، وبديعه ، وفي بعض الأحيان الى معانيـه ، وهو النقد الذي سار عليه جل نقَّـاد العرب ، من قرون وقرون ، ولا يزال محوراً لنقدات كثير من نقَّـاد اليوم » .

ولا ينكر المؤلف ضرورة هـذا النوع من النقد ، على أن يكون تابعاً للنقد الفني أو الواقعي ، لا أن يكون مفرداً ، إذ لا يجوز بحال أن يوضع الفن تحت مشرحة اللغوي والنحوي والعروضي ، ولا يجوز أن يكون نقَّـاد اليوم أبواقاً لنقَّـاد الأمس الغابر ، فيقتصروا في نقداتهم على النقدات الشكلية ، كما فعل الرافعي مثلاً في نقد العقَّـاد ، أو كما فعل أحمد محرَّم في نقد اسماعيل صبري وحافظ ابراهيم .

ثم يلمع الأستاذ السحرتي الى بعض نقَّـاد العرب الأقدمين . كقدامة بن جعفر ونقدات ابن قتيبة ، من نقَّـاد القرن الثالث الهجري ، وكان نقدهما « أعجف هزيلاً مملاً ، عليه مسحة من الصفرة والشحوب » . ومثل ابن الأعرابي وحماد ، وهما لغويان أقحما نفسيهما على الأدب ، وأغلب نقدهما كان يدور حول فقه اللغة . ومثل الآمدي ، من كبار نقَّـاد العرب ، ونقده ذاتي في جملته ، وعبـد العزيز الجرجاني ، الذي كان يهتم كل الاهتمام بالناحية البيانية ، من

تشبيه أو استعارة ، أو مجاز ، أو كناية ، كما كان يعني بتتبع سرقات الشعراء ، ما كان «منسوخاً أو مسلوخاً أو ممسوخاً» .

وبعد أن بيّن المؤلف كيف أن هذا النقد الذاتي الشكلي كان سبباً في تضارب آراء نقّاد العرب القدامى في العمل الفني الواحد أنهى هذا البحث الأول من كتابه القيم بقوله :

«لهذا نجد النقد الأدبي في الشرق بين شدّ وجذب ، وبلبلة وتلدُّد ، كحال الأدب تماماً . ولقد آضَ في ذمة العاملين المخلصين للأدب أن يوجهوا النقد الى الطريق الأمثل ، وخير سبيل هو التوحيد بين المذاهب الثلاثة وذلك بمسايرة المذهب الفقهي في سلامة اللغة واحترام قواعدها ، ومتابعة المذهب الفني في النظر الى فنية العمل الأدبي ، ومجاراة المذهب الواقعي في موضوعه وغاياته الجدية»

وهذه في الواقع هي السياسة التي يسير عليها الأستاذ السحرتي في تحليله للنماذج الكثيرة التي يوردها من الشعر العربي المعاصر . وهو تحليل يمتاز — كما قلت من قبل — بالحيدة العلمية اللازمة ، وإن كان ما خفت من أنغام التحليل يحدّث عن نفس فنانة واعية تحس الجمال إحساساً ، في الوقت الذي تجعله موضع الدرس ، ولا تجد في الحالين تناقضاً ولا حرجاً .

* * *

وفيما يتلو من بحوث حتى البحث الخامس ، يتحدّث الأستاذ السحرتي عن أشياء هي في صميم الصناعة الشعرية ، يتحدّث عن التجربة الشعرية ويمثّل لها ، وعن الصياغة الشعرية وعلاقتها بنوع التجربة الشعرية ثمّ ينتقل الى الحديث عن الألفاظ الشعرية وعلاقة الأسلوب الشعري من حيث موسيقيته أو تنافره الصوتي بشخصية الشاعر ، ويتناول عديداً من الشعراء بالبحث والتحليل ، ويخلص من هذا الى الكلام عن الوحدة الشعرية ، أو وحدة التجربة وعناصر هذه الوحدة من التسلسل المنطقي في السرد والصور الحية ، والموسيقى المتوائمة مع المعنى ، وحرية حركة الالفاظ من القصيد ويذكر ما جدّ من إعراض بعض شعراء الغرب المحدثين عن الاهتمام بالوحدة في القصيدة ممثلاً لهذا من شعر الشاعر الايرلندي المعاصر جيمز جويس .

ثم يترك المؤلف هذا الحديث ليتكلم عن الانفعالات الشعرية ، الموضوعية، ويُقَسِّمُ الانفعالات المختلفة فيسمي بعضها انفعالات ذاتية وأخرى موضوعية، ويفرق بين الانفعال الرفيع الراقي ذي القيمة الايجابية ، والانفعال السيء النازل ذي القيمة السالبة أو السطحية ولعلَّ هذا الفصل ، من أمتع فصول الكتاب ، وسنعود للحديث عنه بعد الفراغ من استعراض البحث .

وفي البحث الرابع ، يتحدَّث الأستاذ السحرتي عن الفكر في الشعر ، ويُفَرِّقُ بين الشعر والنظم . يؤيد جانب الشعر ذي الفكرة في مقابلة الشعر الذي يضم فكرة عادية ، أو لا يضم فكرةً ما .

ثم يعود في البحث الخامس الى الحديث عن الموسيقى الشعرية ، فيرى أن الموسيقى الشعرية ليست كل شيء في القصيد ، كما يرى الكلاسيون من أمثال المنفلوطي ، ويضع الموسيقى الشعرية موضعها الصحيح بوصفها « جنديًّا من جنود التعبير الشعري » وبعد ما يفرق بين ألوان الموسيقى المختلفة وعلاقتها بالمعنى الذي يريد الشاعر التعبير عنه ، يتحدث حديثاً ممتعاً في البحث السادس عن الشعر الرمزي ، والسيريالية الشعرية ، فيؤيدهما تأييداً عامًّا بوصفهما مصدرين جديدين لزيادة ثروة الشعر العربي ، وإن كان ينكر على السيريالية خروجها على كل قواعد التأليف الشعري ، ولا ينكر مع ذلك الهزة المفيدة التي تحدثها في الجمد الشعري المتراكم على بعض تآليف شعرائنا .

وفي البحث السابع ، وهو أطول بحوث الكتاب ، يتحدَّث الأستاذ السحرتي عن نقد الشعر في مصر . ولعلَّ أروع ما جاء بهذا الفصل الصفحات التي تكلم فيها المؤلف عن شعر أبي شادي ، تجلَّى فيها نواحي كثيرة عظيمة من شعر هذا الأديب المغموط الحق ، وعرَّف به أبناء الجيل الجديد من الأدباء والمتأدبين الذين لم يكن لهم حظ معاصرته ، قراءة ودراسة في سن تسمح لهم بصدق الحكم واصالة الرأي .

والبحث الثامن والأخير ، يخصصه الباحث للمذاهب الأدبية والنقدية . ويكاد هذا الفصل يكون استطراداً على بعض ما جاء في الفصول الأولى للكتاب ، لولا ما جاء فيه من عرض لنماذج من الشعر الواقعي في العالم . وهنا يتيح الأستاذ السحرتي لقرَّاء العربية أن

يقرأوا ترجمة أمينــة لأشعار : و . هـ . أودين الانجليزي وفاليرى بريسوف ، ونيكولاي نكراسوف ، ويوشكين ومايكوفسكي من الأدباء الروس ، وأحمد بيرا التركي .

وفي هـذا الفصل يفصح المؤلف إفصاحاً تامًّا عن آرائه ، فإذا هو يناصر المذهب الواقعي في النقد ، ويقف وقفة لا شك فيها إلى جانب الأدب الذي يخبر عن آمال النــاس وآلامهم ، ويدعو إلى الاصلاح والتغيير ، ويدفع بالانسانية الى الأمام في نفس الوقت الذي لا ينكر فيه التعبير عن الفردية تعبيراً صادقاً خالصاً .

* * *

بعد هذا العرض السريع ، لبعض ما جاء في سفر الأستاذ السحرتي ، نحب ان نخلص إلى مناقشة ما استلفت نظر الناقد فأحب أن يقطع فيه برأي مع الأستاذ المؤلف في الفقرة الأولى من ص ٢٣ يقول الأستاذ السحرتي : « وإنا لنجد بعض القصـائد ذات الطاقة الشعرية القوية ، يندّ عنها بعض جمالهـا لاحتوائها على ألفاظ غير شعرية » ولا أحسب المؤلف يصرّ على هـذا التعبير « ألفاظ غير شعرية » فالألفاظ خارج نطاق المعنى العـام للقصيدة لا تكون شعرية ولا غير شعرية وإنما يضفي عليها القصيد الشاعرية أو لا يضفي ، حسب جودته صناعةً ومعنىً . وكان الأصوب إن يقال ألفاظ لم تتسق مع المعنى العام للقصيد ، فلم يسبغ عليهـا القصيد صفة الشاعرية (يراجع في هـذا الرأي كتاب الناقد الانجليزي ريتشاردز — فلسفة الخطابة) .

وفي ص ٦٢ — الفقرة الأولى يتحدّث الأستاذ السحرتي عن قصيدة للشاعر السوداني يوسف بشير التيجاني . فيقول : إنه بالرغم من أن التجربة في القصيدة غير واضحة . فان هيمنة الألفاظ وانسجامها تتحدّى التحليل ، وتقف في وجه الناقد فلا يملك إلاَّ التـأثر بسحرها النافذ . هنا يكشف المؤلف عن بعض الايمان الراسب بالشعر كألفاظ موسيقيـة مستقلة عن التجربة وعن المعنى . ولما كان الكتاب كله يدل على انه في جانب الشعر المفهوم تجربة وألفاظاً ومعنىً ، فما أحسب هذا الاَّ تناقضاً سها عنه المؤلف في غمرة المجهود الجبار الذي بذله في الكتاب .

على أن هذا يثير تعليقاً عارضاً. فالشعر، ككل الفنون الأخرى، له جذور ممتدة في السحر، وايمان بعض النقاد موسيقية الألفاظ بوصفها أشياء في حد ذاتها، أو وحدات مغلقة تستعصى على الفهم وتتحدى التحليل، انما هو ايمان بدور بدائي للشعر كان القصيد فيه ترانيم سحرية وطلاسم مغلقة يرددها الساحر، أو المصلي، قصد استحداث تغيير خارجي في البيئة، عن طريق تغيير داخلي يحدث في نفس الساحر أو المصلي، ويجعله أقدر من ذي قبل على تغيير البيئة (راجع كتاب جورج طومسون في الشعر). وهذا الدور المقوي، أو العلاجي يشبه الى حدٍّ ما نظرية أرسطو في الأثر الذي تتركه المأساة في نفوس المتفرجين، فتخلصهم من همومهم الخاصة عن طريق عرض مآسي كبرى أمامهم. ومما لاشك فيه، أن الفنون لها ناحية علاجية واضحة تنبه لها العلماء من زمن، واستخدموها فعلاً في الأغراض العلاجية.

* * *

ونقطة أخرى لعلها أهم مما سبق هي نظرة المؤلف الى الانفعالات السيئة أو النازلة والانفعالات الرفيعة الراقية. هذه النظرة لا تبدو واضحة في الكتاب، وعَرْض المؤلف لها خليق أن يثير شيئاً من الاختلاف في الرأي، يقول الأستاذ السحرتي في ص ٩٥— « أما الانفعالات السيئة أو النازلة والتي ترمي الى الاثارة فقط، فهي مادة غير صالحة للأدب والشعر، ولا عبرة باجادة التعبير عنها لأن الفن مهما انفصل عن الأخلاق فهو لن يسمو باثارة الخواطر العابثة، والعواطف المنحرفة الشاذة » هذا حكم أخلاقي على الانفعالات وكان من الواجب الحكم عليها حكماً فنيًّا علميًّا.

والصحيح أن يقال إن كل الانفعالات مادة صالحة للأدب والفن ولكن تقييم هذه الانفعالات هو الذي يدمغ بعضها بطابع السطحية ويدمغ بعضها الآخر بطابع الخلود. فحديث الشاعر « نزار قباني » عن الثدي حديث فني، به جودة في التعبير وبه خيال وتأنق ولكن قيمة هذا الحديث قيمة مؤقتة، لأنه يتناول ناحية عابرة في تاريخ الفرد وتاريخ الانسانية، ولو انه اختار انفعالاً آخر كانفعال الفرح أو الحب أو الغيرة لكان

حظه من البقاء أكبر لأن حظ هذه الانفعالات نفسها من البقاء أكبر وأعم

أما عن انفصال الاخلاق عن الفن فهو انفصال عابر. والحقيقة أن الفن والأخلاق يلتقيان في أن كليهما تعبير عن الشخصية الانسانية، مع هذا الاحتراس، وهو أن الأخلاق تعبير مؤقت عن الشخصية الانسانية وحظه من التعبير أعظم من حظ الفن الجيد الذي يربط نفسه بالحقائق الأولى للحياة، ويدخل في حسابه ان هذه الحقائق تتطوّر على المدى.

* * *

الفن إذن لا يمكن ان يغض بعض الطرف عن الأخلاق، كما يذهب بعض النقّاد والفنانين المنحلين، ولكنه ينظر اليها نظرة محللة فاحصة، ويعبر عنها على هذا الأساس المدقق.

بقيت ملاحظة أخيرة على الفصل المعنون « نقد الشعر في مصر » فقد أغفل فيه المؤلف كتابين هامين الأول « الشعراء وبيئاتهم في الجيل الماضي » للاستاذ عباس محمود العقاد. والثاني ديوان شعر للاستاذ لويس عوض بعنوان « بلوتولاند وقصائد أخرى »

وأهمية الكتاب الأول أن به محاولة لربط شعراء القرن التاسع عشر في مصر بالبيئات الاجتماعية والاقتصادية التي نشأوا فيها، وهذه خطوة متقدمة في النقد كان من الواجب الاشارة اليها.

أما الثاني، وهو ديوان الأستاذ لويس عوض ففيه مقدمة رائعة — وان كانت الناحية العاطفية تغلب عليها — عرض فيها المؤلف لحال الشعر العربي وأثار قضية الشعر العربي الكلاسي، والشعر المصري المكتوب باللغة الدارجة ثم اتبع المؤلف هذه المقدمة بمحاولات شعرية قصد فيها أن يصدم الجمود الشعري الذي نعاني منه بقصائد من تأليفه لا تخلو من جمال جديد غريب وهي خليقة بدراسة عميقة من النقّاد.

مرّة أخرى نهنىء الأستاذ السحرتي ونرجو أن يأخذ كتابه المكان اللائق به في مكتبتنا العربية الحديثة ».

علي الراعي

الحرب بين النباتات

استمدَّ كثيرون من مشاهير القواد الأفذاذ خططهم الحربية ، من بعض المشاهدات التي تتكرَّر يوميًّا أمام أعيننا ، دون أن نعيرها التفاتاً . . ففقيد العروبة المرحوم أحمد عبد العزيز قائد قوات الفدائيين المصريين بفلسطين ، اقتبس أسلوبه الفذ ، وجرأته النادرة من هرَّة حاصرها رهط من الأطفال وأوسعوها ضرباً بالعصي . . فوثبت على أكبرهم فاضطرب . وترنحت العصا في يده ، وهنا وجم بقية الأطفال فاستطاعت الهرَّة النجاة . وتيمورلنك الملقب بصاحب قران « أي ملك العالم » لما استبدَّ به اليأس بعد حصار إحدى المدن عدة مرات ، ألهمته نملة أن نور الرجاء يجب أن يظل رائده الأول ، فقد كانت تحاول نقل حملها إلى جحرها وفشلت عدة مرات . ولكن إصرارها على النجاح أتاح لها الفرصة أخيراً . وتزيد الأمثلة عن الحصر وكلها تنطق بالمثل العليا التي تضربها بعض الحيوانات أو الطيور للناس . . على أن هناك عالم آخر مليء بالعبر . وبالمثل العليا في الكفاح . وأعني به عالم النبات . وقد يظن البعض أن هذه الكائنات القعيدة المقيدة لا تقوى على الكرّ والفرّ والهجوم والدفاع . ولكن الحقيقة أن حياتها مليئة بالحروب الدامية والصراع العنيف . وإنها تستخدم أنواعاً شتى من الأسلحة الخطيرة ، التي نعدها حديثة في حروبنا البشرية ، بينما هي قديمة العهد جداً في العالم النباتي . كالحرب الجوية والهبوط بالمظلات ـ الپاراشوت ـ والطابور الخامس ، والحرب المائية . بل هناك أسلحة نباتية عجز فطاحل العلماء البشريين عن تقليدها . وفيها يستخدم في الغزو أسلحة تمرق كالسهم تحت الثرى ، وتهاجم الأعداء بما سيأتي بيانه . فمنذ بردت القشرة الخارجية للكرة الأرضية ، غمرها الخالق سبحانه وتعالى بتقاوي أزواج من نباتات شتى . وأفاض عليها من ماء المزن ، فبعد أن كانت هامدة اهتزَّت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ووهب المولى العظيم كلاً منها أسلحة عديدة

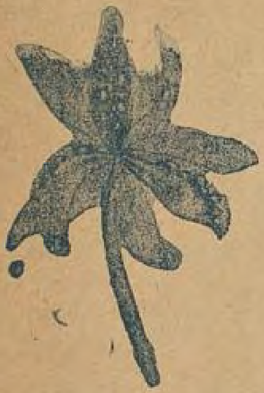
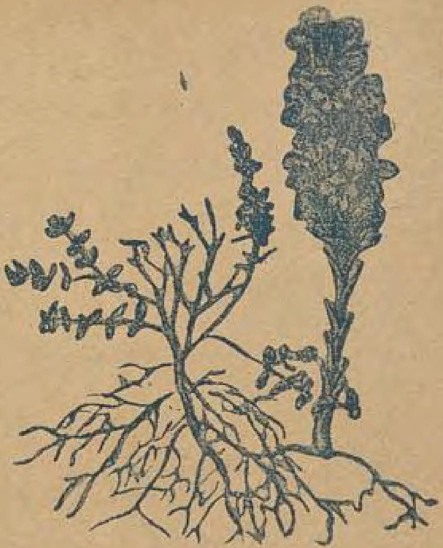
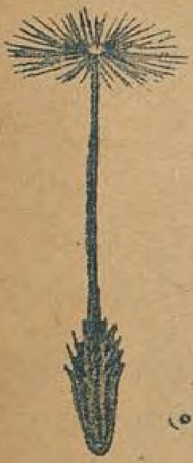
(٥)
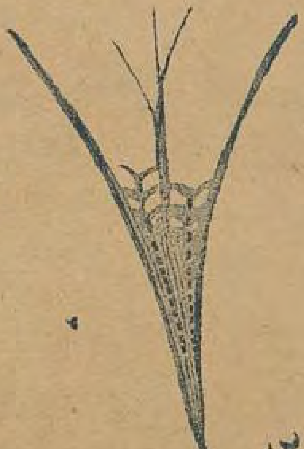
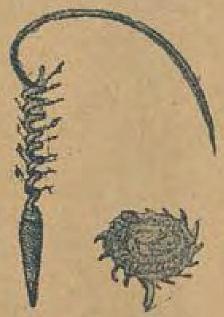
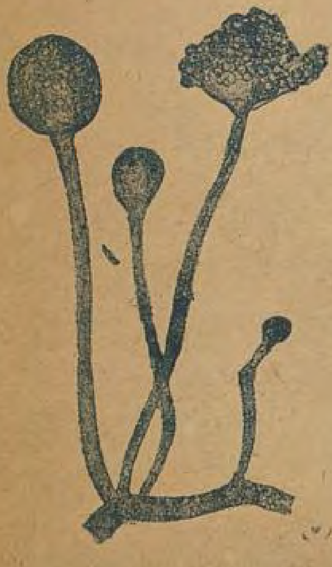
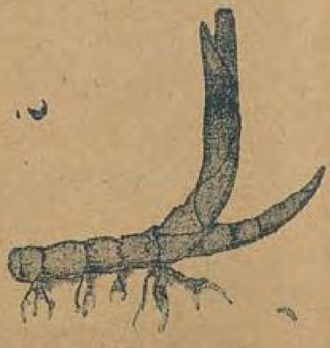

للهجوم والدفاع ، كما اختص كلاً منها بمميزات علَّم الانسان بعضها ، وترك له الباقي ليكشف كنهه بما وهبه من عقل راجح وبصر كاشف وبصيرة ثاقبة .

أما مثار الحروب النباتية ، فهي هي أسباب الحروب البشرية والحيوانية ، هي تصادم المصالح والتنافس على الطيب من الأرض ، والتطاحن على القوت ، والتهافت على الموارد العذبة . أما وسائل القتال فبعضها أولي ينحصر في أن النبات القوي يسبق الضعيف في التهام الغذاء ، والماء ، حيث يمد جذوره الشرهة إلى أبعاد نائية ودانية . وبذا يشتد ساعده ، ويعلو ، فيحجب الضوء عن النبات الضعيف ، ولا يخفى أن الغذاء النباتي عبارة عن تمثيل لكربون الجوّ بواسطة أشعة الشمس في الأوراق « أما الجذور فتمد النبات بما يلزم من ماء وأملاح » فبحرمان النبات الضعيف من الضوء اللازم يأخذ في الاضمحلال والضعف .

وقد يحاول الوصول للضوء جاهداً فتستطيل خلاياه ، وتشرئب قامته « ويعرف في اللغة العامية بأنه يسورق » ولكن ارتفاعه مع هزاله لا يسمح له طويلاً بالحياة والكفاح. ولذا فسرعان ما ينهار ويذبل . ولبعض النباتات العديمة الجذور أو لضئيلتها طرق غريبة في صرع النباتات ، والتطفل عليها واعتصار دمها وامتصاص غذائها . فنبات الحامول يلتف حول سوق البرسيم ، والعطر ، والزعتر ، ويرسل ممصَّات تلتصق بأنسجة النبات العائل ، ثم تسرق منها ما تشاء من ماء وغذاء . أما نبات الهالوك وهو من أشرس النباتات وأعنفها كفاحاً ، فإن بزوره تظل ساكنة في التربة من ١٥ ـ ١٧ سنة دون أن تموت فإذا ما اشتمَّ جنينها رائحة جذور الفول أو البسلة أو الكراوية أو البابونج . فإنه يَنْبت ويلف نبته في مدار حلزوني حتى إذا ما صادف جذر العائل التصق به . وأخذ يمتص من غذائه ثم يرسل ساقاً قوية تحمل مئات الأزهار ، وملايين البزور . وبهذا الجيش الجرار من البزور يبدأ هجوم العام التالي . وما يليه من سنوات ، يتضاعف فيها عدد جنوده مئات المرات . ما لم تتداخل العوامل الزراعية . والمساعدات البشرية لإنقاذ الحاصلات النافعة من براثن فتكه ، باقتلاع نباتات الهالوك قبل الإزهار ، وباتباع دورة زراعية طويلة لا تزرع فيها النباتات التي تعوله ، وبزراعة مصائد نباتية لاقتناصه ، فقد أثبتت التجارب

أنه بزراعة الكتان في الحقول الملوَّثة ببزور الهالوك ، فإن أجنة البزور الأخيرة تنبت ثم تنمو على الكتان ، ولكنها سرعان ما تموت ، لعدم ملاءمة جذور الكتان الكبير لنموها كما يفيد غمر التربة بالماء خمسة عشر يوماً في خنق ما بها من بزور الهالوك وإن لم يكن الخنق تامًّا لجميع بزوره .

ولبعض الحشائش أسلحة أوتوماتيكية ، تقذف ببزورها إلى أبعاد طويلة فان قرونها لا تفتح بسهولة ، بحيث تسقط بزورها في مكانها « كما في البسلة الشيطاني بل تتفتح بقوَّة وبصوت » وتنثر بزورها الى أبعاد كما ترى في الشكل » ولكن هذا الانتثار لا يقارن بما تفعله بزور الجعضيض والقريص وبزور نبات أسنان الأسد . فقد سلحتها السماء بمظلة حريرية (باراشوت) تستطيع بواسطتها أن تطير في الجو . وأن تهبط حيث المهد الملائم والجو المناسب ، والرطوبة اللازمة لسرعة إنباتها . وبذا تحتل ميدان الموقعة دون أن تستطيع نباتات المحاصيل أو زارعها أن يقاوموها . وكثيراً ما يتم هذا في فترة الليل حيث تتعذر أو تنعدم القدرة على رؤية أو مقاومة هذا العدو . ولقد اتبع الألمان في الحرب الأخيرة العالمية هذه الطريقة في احتلال جزيرة كريت ، عن طريق الجو والهبوط بالمظلات .

على أن لبعض النباتات مقدرة فائقة في إخفاء طابورها الخامس ودسِّه بين بزور المحاصيل بحيث يتعذر معرفتها على الزراع . وبالتالي يصعب فصلها فبزور الحامول الكبير تكاد تساوي بزور البرسيم حجماً واستدارة وشكلاً كما أنها تنضج مع تقاوي البرسيم . وقد ظلَّ الإنسان أمداً طويلاً يحاول تنظيف تقاويه منها حتى هداه البحث الى طريقة طريفة تنحصر في خلط التقاوي ببرادة الحديد ثم تعريضها لمغناطيس قوي ولما كان سطح بزور الحامول غير أملس فإنها تحمل كمية كبيرة من مسحوق برادة الحديد ، وبالتالي فإنها تنجذب وما عليها من البرادة الى المغناطيس دون بزور البرسيم الملس . وقد صنع الألمان آلة كبيرة لتعقيب البرسيم بني تصميمها على هذه الفكرة البسيطة وقد اشترى قسم البساتين واحدة منها

وقد تلجأ النباتات إلى وسيلة أخرى لنقل أفراد الطابور الى أراضي الأعداء دون أن ينتبه إليها أحد من أصحاب هذه الأراضي . وذلك أن تكون لثمارها أو لبزورها أشواك

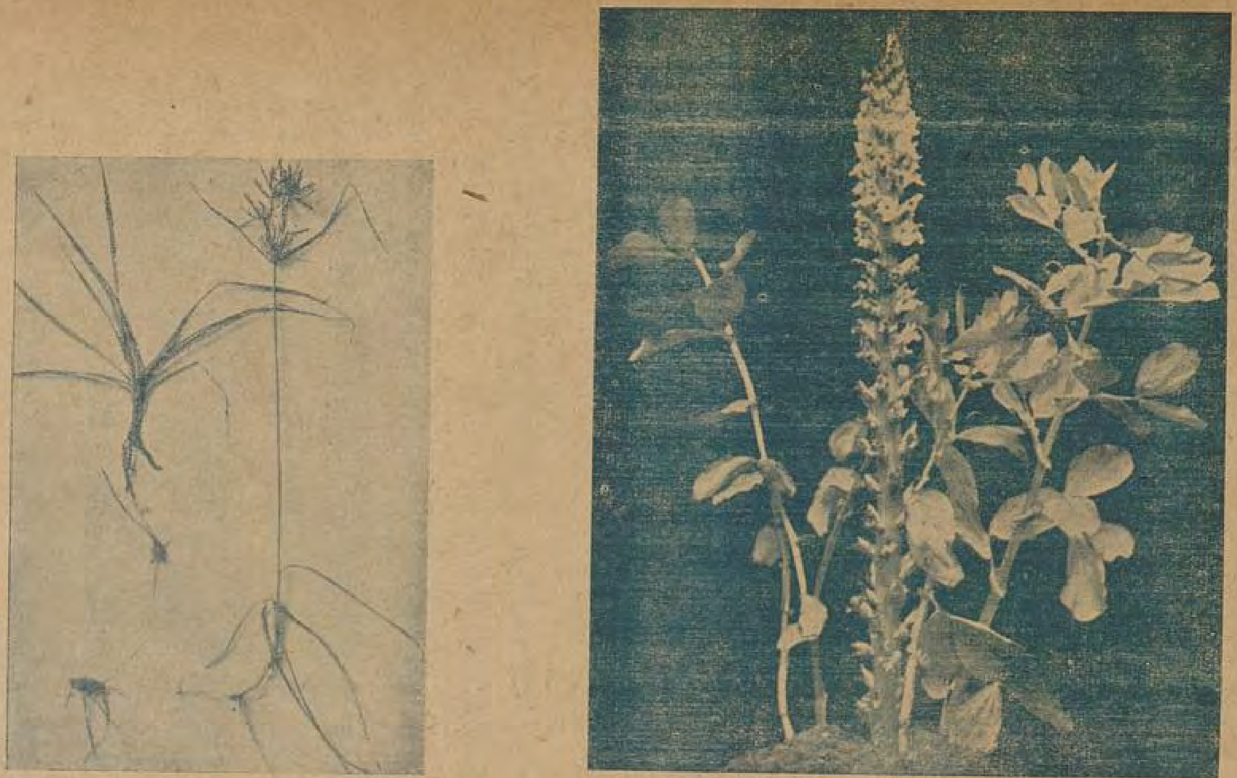

هالوك متطفل على الفول

بسيطة تعلق بشعور الحيوانات أو بملابس المزارعين كما في ثمار الشبيط والنغل المر والجزر الشيطاني والكرفس البري .

وهناك طريقة أخرى لانتقال هذه البزور الضارّة دون أن يلاحظها أحد وذلك بأن تلقيها نباتاتها الى مجاري المياه وسرعان ما يلقيها اليمّ بالساحل أو تحملها قنوات الري آمنة مطمئنة الى التربة . وأغلب ما ينقل بهذه الطريقة البزور الخفيفة التي تقوم على سطح المياه وكذا بزور النباتات التي تنمو على شواطىء القنوات . ومن أمثلتها ، المنتنة وجميع أنواع الرمام والتفتة والرجلة والحميض. واستخدم اليابانيون هذه الطريقة في الحرب الأخيرة في الاستيلاء على كثير من الجزر المتاخمة لبلادهم في التسلل إليها ليلاً عن طريق البحر. وقد تقف بعض الطيور موقفاً عدائيًّا للنباتات النافعة المنزرعة وأصحابها، وذلك بأن تأكل ثمار بعض الحشائش أو بزورها . ولما كان لبعض البزور غلاف صلب فإنها تمر في القناة الهضمية لهذه الطيور أو الحيوانات دون أن تتحلّل أو يموت جنينها وعند لفظها لهذه البزور فإنها تهبط في هدوء واطمئنان الى التربة المخصصة لنماء الحاصلات . ومن أمثلة ذلك بزور لسان الحمل وبعض أنواع النلارس .

وتحتاط كثير من النباتات فتحمل أكثر من سلاح . ففي السعد مثلاً لا يكتفي النبات بما لديه من بزور خفيفة سهلة الانتشار بالماء والهواء فإنه يستخدم سلاحاً خفيًّا ماضياً فهو يكوّن عُقداً مليئة بالبراعم الكامنة . وعلى أكثر من طبقة لأسفل . فإذا ما اقتلع النبات من منطقته العليا وظنّ المزارع أنه تغلب على النبات واستأصله فاذا ما رويت الأرض للنبات النافع الحليف فسرعان ما تتنبه براعم السعد الكامنة في الدرنات السفلية والتي كانت تتصل بالنبات الظاهر على سطح الأرض اتصالاً رهيفاً لا يسمح باقتلاعها معها . وتمثل هذه الحالة اتصال المزارع اليهودية المتناثرة في صحراء فلسطين والتي تعمل كل منها مستقلة إذا انقطع الاتصال بمركز الخلية .

وهناك سلاح رهيب لم يقو الانسان على تقليده حتى الآن وهو يزحف تحت الأرض ويتخذ من الثرى غطاء يخفي حركاته الخطيرة وهجومه المستتر . ففي النجيل والحلفا والعرق السوس تزحف جنودها ـ ريزوماتها ـ تحت التربة دون أن تراها عين أو يحس بدبيبها أحد .

فاذا ما اقترب النجيل أو الحلفا من جذور نبات توقفت ريزوماتهما قليلاً وأخرجت واخزات حادة تثقب بها تلك الجذور أو الدرنات أو الأبصال ثم تنخرها وتعيث في محتوياتها فساداً . ولا تقتصر هذه المعارك على النباتات ذات الوزن المتقارب كما هو الحال في الملاكمة كما لا يشترط أن يكون النبات المهاجم أقوى أو أكبر حجماً من النبات المدافع. فان كثيراً من الميكروبات النباتية لا تكاد ترى بالمجهر إلاَّ بصعوبة. ومع ذلك فان فتكها بأكبر الأشجار يكون ذريعاً . فجراثيم البياض والعفن والصدأ والتفحم لا تقيم وزناً لحجم الأشجار أو النباتات التي تهاجمها . ومن طريف ما شاهدت في هذا الصدد أن بزور نوع من الهالوك لم تجد أمامها سوى أشجار الكازورينا الصغيرة في المشتل فهاجمتها ونمت على جذورها وأضعفتها عن مثيلاتها كما هو موضح في الصورة ؟

ومما يذكر في هذا الصدد أن باستير العالم الفرنسي الأشهر أراد أن يستفيد من المعارك النباتية وأن يستخدم سلاحها في إبادة جراثيم الأمراض الخطيرة ضد الانسانية . فقد لاحظ عام ١٨٧٧ أن بعض الكائنات تقاوم بشدة مرض الجمرة الخبيثة ولم يتسع له الوقت في التوسع في هذا الميدان ، ولكنه وضع الحجر الأساسي لأبحاث العالمين إمرش وَلُو عام ١٨٩٩ حيث توصلا الى أن جراثيم « سيدوموناس بيوثيينيا » تكسب المحاليل التي تنمو فيها خاصية فريدة في قدرتها على اهلاك كثير من الميكروبات الضارية التي تفتك بالانسان . وفي عام ١٩٢٩ بينما كان العالم الانجليزي الدكتور الكسندر فلمنج يقوم بفحص مزارعه البكتيرية في مستشفى سان ماري بلندن. وكان الكثير منها قد تلوَّث بالمئين من الميكروبات السابحة في الهواء والتي أخذت تتكاثر وتنمو في كافة صحون المزارع . ولكن ما هذه البقعة التي حرَّم فطرها على غيره من الكائنات أن تقربها أو تنمو فيها ؟ وأي سلاح ماض يتخذه هذا الفطر في تخدير أعدائه واذابة أجسامها ؟! لقد قام بعزله البحَّاث وتربيته في مزارع خاصة، ثم في محاليل غذائية، فاذا بالفطر يفرز مادة صفراء شغلته عن الفطر نفسه، فجرَّب أثرها على مزارع الكائنات الدقيقة الأخرى الضارة بالانسانية فاذا بتأثيرها الساحر يوقف نشاط هذه الميكروبات ويذيبها وكان الفتح المبين في اكتشاف البنسلين أو افراز فطر البينسيليم نوتاتم للفتك بأعداء هذا الفطر من الميكروبات النباتية التي كثيراً ما تورد الانسان موارد الهلاك والفناء كجراثيم الغانغرينا الغازية، والالتهاب الرئوي، والالتهاب السحائي، والدفتريا والسيلان، والجمرة، وكثير غيرها من الميكروبات السبحية والعنقودية، فكم في هذا الصراع النباتي من فوائد للبشرية ؟! وكم في خلق الله من أسرار وعبر

عز الدين رشاد

رئيس فرع النباتات العطرية والطبية

عودة الأب

كانت ليلة من ليالي الصيف المصحية حين جلس الزارعون في العراء قبالة أعرام القمح رعونها بعيون يقظة ساهرة . وقد انتثروا في فضاء الله ثُبات ثباتٍ لكل ثبة همّ ، فهذ في حديث عن غدها وما ترجوه من وفاء إجارات وديون : وتلك في جدل تثيره المطالب التي لا يفي لها المحصول . وثالثة جلس آحادها في صمت بين نظرة الى الأرض وأخرى الى السما كأنهم يبثون بها الزرقاء ما فعلت الغبراء . ومن بين هؤلاء وهؤلاء جماعات ملك المرح زما صغارهم فشاع لهم زمر وغناء يعلو حيناً وتردد الأرجاء صداه فيجد سبيله الى الأنفس الواجمة فيستخفها ، أو إلى الألسنة المعقودة فيحلّ من عقالها ، وإلى الصخب والعنف فيخيله صمتاً ورفقاً .

ثمّ يخفت فتعود النفوس واجمة والألسن معقودة والصخب الى شدّته .

حتى اذا ما استنفد الجهد آخر ما في النفوس من مُنّة تراخت الأجفان وانفرج الأشداق عن ثأب ، وأصابت الأجساد فترة ، حنّت الجنوب الى المضاجع فانبطحو وطاؤهم الأرض وغطاؤهم تلك العباءات التي صنعتها أيديهم من الأصواف والأوبار .

ويخيم السكون على ذلك الفضاء ، ويتكبد القمر في رِشقه النير السماء ، فيكشف ع حيّ يخطو في حذر بين تلك الجثث الملقاة على الأرض حول الأعرام هامدة لا حراك بها ويخطو خطوة ثمّ يتلبث قليلاً محدقاً فيما حوله يحسب في دبيبه الهين بقدميه الخفيت قرع النعال على الصفا ، وفي خفق جلبابه والريح تلعب به حفيف الأدواح مع العواصف وفي أنفاسه التي كان يعلو بها صدره ويهبط في عجلة لم يعهدها ، تأوّهاتٍ لها صداها الأجواء ، وفي وجيب قلبه دقات مُرنّة تنفذ الى الآذان .

حسب كل هذا وأيقن به فقصر من خطاه وخفّف من وطئه وطوى فضل ردائه

وسطه وأطبق شفتيه إطباقاً وحطّ يسراه على مكان قلبه من صدره يظن أنه ممسكه عن الحركة.

ويرى أنّ الأمور قد استقامت له بالذي فعل فيمضي في سبيله، على عاتقه عُبَيْوة صغيرة وهو يحاول أن ينهب تلك الأذرع الباقيـة بينه وبين عَرَمة من الحنطة تحكي الهرم شكلاً وانحداراً.

ويرنو ببصره فيرى القمر قد نفذ ضوؤه من خلل سعفات النخيل فأرسله على الأرض أشباحاً من ضياء تلعب على الأرض كلما لعبت الريح بالأغصان فيوجس في نفسه خيفةً ويلقي الوهم في روعه أنّ أهل الأرض قد أحسّوا به فنهضوا في قمصانهم البيض. وتسرع يداه الى عينيه فركاً ويحملق فيما بين يديه وتحت رجليه فيعلم أنه من صُنْع القمر والأشجار والرياح، فتعود إليه الطمأنينة ويتحسس العبيوة فلا يجدها حيث طرحها على عاتقه اليمنى. فيرجع أدراجه يتفقدها ويطول به البحث ويجهده الجهد فيرشح جسمُه عرقاً ويجد معه شيئاً يشوك قفاه فيمد يده إليه فيجد العيبة كما هي على عاتقه اليسرى لا اليمنى. فيشوش لهذه لبّه ويكاد تثنيه رهبة عما هو مقدم عليه. ويضيق صدره بالذي خرج له فيعود الى نفسه لائماً وزاجراً ويصحّ منه العزم على أن يرجع من حيث أتى.

وفيما هو مولّ وجهه شطر منزله إذا به يذكر الصبح حين يصبح وصغاره حين يهبون ببطون خاوية يسألونه ما أعدّ لهم من طعام ووفّر من زاد. ومثل له مجلسه منهم عشاء هذه الليلة يتبلغون بتلك اللقمات التى كانت آخر ما ضمت السلة. وذكر يده الفارغة من العمل وما عانى من ذلّ سؤال الجيران. وامتلأت عيناه بالماء وانفرجت عنه الجفون فجرى على خدّيه ساخناً.

وما عرف أنه بكى بعد أن شبّ قبل هـذه إلاّ يوم وارى زوجه الرمس منـذ سنين ثلاث. فحمل الى عبئه عبئاً آخر. يكسب للصغار نهاراً ويرعاهم ليـلاً. وإذا به بعد عام أو نحوه طريح الفراش ينفق من يسير ما ادخر. حتى إذا ما نفد امتدت يده إلى فُرش وأوعية باعها للداء والغذاء. وما أن يبرأ حتى يجد نفسه ذا علة دفينة تجعل من اليد الصنـاع يداً مضطربة لا يرغب فيها أصحاب المصانع، فيحبس نفسه أمام منزله، يندبه في الحين بعد الحين من لهم إليه حاجة وهم لا يقوون إلاّ على قليل ينقدونه إياه.

مرّت هذه الذكريات تباعاً في مخيلته فزفر زفرة حارّة واسودّ في عينه ما ابيضّ ولم يملك زمام نفسه فعاد يقضي ما خرج له .

وفيما هو يفتح فم العبيوة ليهيل فيها القمح بيديه . إذا عين غافية تنتبه وإذا صاحبها يحاول أن يثب فتُعجله ضربة بفأس تقع على أم رأسه يصحو لها من حوله فيجدون بين أيديهم شيخاً مضرجاً بدمه ورجلاً يعدو على بُعد فينهضون في إثره فلا يتعلقون منه بذيل .

* * *

ويصبح الصباح ويهبّ كبير الصغار الثلاثة من نومه فلا يجد أباه في مكانه فينشده خارج الدار حيث اعتاد أن يجلس فلا يراه . ويظنه دُعي إلى بعض ما يدعى إليه فيجد أدواته في مكانها . فيجلس إلى أخويه يداعبهما .

ويبيضّ النهار وتُصعد شمسه ويجد الصغار للجوع ألمه ويأخذ صغيرهم في البكاء وأخواه إلى جنبه يمنّيانه بأطيب ما يشتهي وألذّ ما يؤكل .

ويشقّ الأمر على الصغار فيخرجون هلعين لا يدرون آلجوع فزّعهم أم هم بغيره مُفزَعون ! وينذر بهم الناس . وكانوا قد انتهى إليهم مقتل ذلك الشيخ من جيرانهم في الحقول المحيطة فيعجبون للخَطبين تجمعهما أُمسية واحدة .

وشاعت شائعة استحالت بعد قليل يقيناً حين شهد كبير الصغار أن العبيوة التي تُركت ملقاة إلى جانب الأعرام لأبيه .

* * *

عرفت المدينة صبياناً ثلاثة تضمهم حجرة في حي من الأحياء التي تضيق فيها الغرف بنزلائها . وعرفوا رجلاً يبرّهم يملك البيت الذي أوى إليه الفتية . وكان يستأجر كبيرَهم في حانوته أو قل في مصنعه الصغير . وسرعان ما شبّ الاخوان فلحقا أخاهما الى المصنع نفسه وأصبح لتلك الأسرة من الصغار مالٌ تعيش منه أخذ ينمو مع الأيام ، وفاض منه شيء عادوا ببعضه على عجوز مُرمل كانت تنزل الغرفة المجاورة ، جزاء جهد منها تبذله في العناية بأمرهم .

وجرت الأعوام سراعاً وطوت فيما تطوي ربّ المصنع والبيت . فخَلفه عليهما كبير الأخوين ، وكان قد زوّجه الرجلُ من وحيدته وأسلم إليه الأمور حين قعدت به السن .

حملها الفتى عامين وأياماً لم يألُ فيها جهداً وأفاد كثيراً من كسب يَسَّر به للرجل ما أراد. فأسلم الروح ولسانه مشغول بالدعاء له والوصاة بابنته وأمها .

* * *

وقد فاتنا أن نحدّثك قليلاً عن فتاة هذا البيت . فهي من الجمال على حظ يرغب فيه الكثير . ثم إن أباها لم يهمل أن ينشئها قارئة كاتبة فأرسلها الى المدرسة صبية وضمها البيتُ حين كعبت وأيفعت . وقنعت الفتاة على غُصة بأن تجري يداها في الأوعية والأطباق بعد أن كانت تجري بين المحابر والدفاتر . ورضيت ضجرة بأن تشارك الأم الى جانب الموقد وكانت من قبل شريكة لجمع من صواحبها بين قاعات الدرس ، ولم تملك مع إرادة الأبوين إرادة تصل بها ما كانت راغبة فيه من حياة.

فقبعت في البيت لا تخرج الى السوق إلاّ في كنف أمها . واستبدلت بيئتها الأولى بيئة من العجائز يزرنَ أمها وتزورهنّ لا يؤمنَّ بأن تثقف الفتاة بغير الثقافة المنزلية ويجزعنَ حين يرينَ لهنَّ فتاة يصاب أبوها بحمى تعليمها .

فشقيت فتاتنا بآرائهنّ حيناً ثم ألفت ذلك عنهنّ ووجدت في البيت ما يشغلها اليوم كله، ولكنها كانت ترجو شيئاً واحداً بعد أن فقدت كل شيء . كانت ترجو أن ترى نفسها الى زوج له مثل حظها أو فوقه من ثقافة . أو قل كانت تريده زوجاً من غير المدرسة التي نبت فيها أبوها وزوجها .

ولكنها لم تملك أن تقول بما ترغب كما لم تملك أن ترفض . فانطوت على ألم لم يصرفها عن أن تعيش معه لمن لم تحب ، طائعة ناصبة . تغلب نفسها على أمر لم تعرف بادئ ذي بدء أنه لا يُغلب . وكانت تفهمه شيئاً غير الحب وتظنه هذا التباين بين النشأتين والاختلاف في اللونين .

وما اختفى وجه الأب من البيت واختفت معه تلك الرهبة التي كانت تفيض بها جوانحها خوفاً منه ، حتى بدا لها الأمر في صورة غير التي كانت تظن . وما رأت وجه ذلك الفتى الذي كان يجري في أثرها مع الغدوة والروحة وهي فتاة ، والذي كان يسكن من بيتها الى ناحية ، والذي عوّدها أن تراه حين تقف الى نافذتها مع المساء حين كف عن ملاحقتها في

الأسواق بعد أن أصبحت زوجة — ما رأت وجه ذلك الفتى وكانت تعرفه صبياً حتى عرفت أن الذي تضطرب به جوانحها شيء آخر أخذ يتكشف في وضوح حين ملكت جَساً نآ فقدته في ظل أبيها ، وقوة لم تكن تعرفها من قبل ، فقالت لنفسها يوماً : إني أحب . ولم تجهد كثيراً في تعرُّف من أحبت . فلم يكن غير ذلك الفتى الذي شغل بها وكان من أمره معها ماكان .

* * *

إنها تملك من زوجها يداً مدبرة للمصنع ، وهو معتمدها ومعتمد أمها ، وتملك من هذا الحبيب قلباً لا تشك في ذلك ولكنه تنقصه القدرة التي منَّ الله بها على هذا الزوج .

إذاً فلتصرف قلبها عن هذا الهوى الضال وما لها تفكر فيما لا تملك معه حلاً . ثم مالها برم والى جانبها قلب فيه اجلال واحترام . أليس هذا كل ما تبغي المرأة وتريد ؟

حدَّثت نفسها بهذا لترضى . وآلت على نفسها ألاَّ تمس تلك النافذة بيد . واتجهت الى الزوج تزيد في بره وإلطافه حتى كاد الزوج يظن بنفسه الظنون . وأن المرأة تهزأ به ، أو أنها تخفي في صدرها شيئاً .

وكلما أمعنت الزوجة في التقرب أمعن الزوج في الريبة . وأحست ذلك منه فعاودتها بلتها وأُحيط بها . واستحكمت ذات مساء عقدة نفسها ولم تجد غير النافذة مخرجاً لما هي فيه فدفعت مصراعيها بكلتَي يديها تطلب الهواء وما حسبت أنها تطلب وجه الفتى تأنس به هنيهة .

* * *

كانت الفتاة صادقة حين برت زوجها فأسرفت . وكان الزوج غير صادق حين رابه أمرُها.

أرادت الفتاة أن تغلب هذا الهوى الغالب بما حاولت لتنسى ، وأن تحول بين مشاعرها وبين أن تشغل بغير ما تريد . فجعلت الأمور كلها براً واحتراماً ، حتى فيما لا يطلب معه بر والاحترام . وما كان يملكها أن تجري أمورها مع الصواب والرشاد . ولم يعرف الزوج ما تخفي الصدور ولم يكن على حظ من ثقافة يقلب به وجوه الأمر أو يصل به بين نفسه ونفسها حتى يعلم .

ولكنه عرف الزوجة كما عرفها مَن على شاكلته في كلمة لاحظ في ظلها الروح ، عرف المرأة طعاماً يزدرده سهلاً لذيذاً كلما أحسَّ إليه نهماً وجوعاً .

فما أن رابهُ منها ما رابهُ حتى رآه مُرّاً ما أساغه بالأمس حلواً . وجهدت المسكينة غير موفقة في أن تظفر به راضياً كما كان فلم تفلح . وقد أكثرت من الوقوف الى النافذة ، وهي وإن لم تبادل الفتى نظرة إلاَّ أنها كانت تجد نفسها راضية حين تعود منها فترى الفتى ناظراً إليها لا يني ولا يفتر . فتبيت ليلها هادئة مطمئنة .

وانكسرت فيها حدَّة البر فاقتصدت ، ورأى الزوج الصلة بين هذا وكثرة وقوفها الى النافذة ظاهرة . فبغتها على حين غفلة . فرأى الفتى يشير بيديه ، فاختفى ليرقب الأمور كيف تجري في غيبته .

* * *

كانت الزوجة تستجيب لهواها عن غير عمد . وكان الذي تراه هواء تنشده في النافذة لتنشقه فتراح له نفسها هو الهوى الذي لم تَقو على غلبته . وقد وجدت الراحة بعدُ في أن ترفع رأسها ، وما عليها في ذلك من حرج فرفعته وكانت من قبل تقف به مطرقة .

ولكن شيئاً واحداً لم تَقْوَ له بعدُ وغلبتْها نفسُها عليه . فقد تعوَّدت ألاَّ تغادر النافذة إلاَّ بعد أن تبْسم للفتى وتحيِّيه برأسها مرة وبيدها أخرى . وهي حين تفعل تُحس السرور قد ملأ عليها جوانبها . والغبطة قد سرت مع دمها .

* * *

أمَّا عن الزوج فقد التفت إلى زوجه يفجؤها في أوقات مختلفة من النهار . وكان يكتم عن أمها ما ساوره . ولو فعل لأراح نفسه من هذا العناء وهذه البلبلة . وما أن عرف لها لبثها الطويل إلى النافذة حتى حال الشك يقيناً وضاق صدره بما حمل فجمع إليه أخويه وأسرَّ لهما بما كتمه عنهما أشهراً . وثارت نائرة الأخوين ، وهتفا باسم الزوجة حيناً وباسم الفتى حيناً آخر . وامتلأ قلب أصغرهما حقداً على الفتى وحفظها له في نفسه .

ولكن ليس هذا كل ما أراد الأخ الأكبر ، فعلى الأخوين أن يشركاه في رقبة الزوجة وعليهما أن يُنْهيا إليه ما يعلمان .

هذا والزوجة في غفلة عما يقال في أمرها . ولم تجد من تُلقي له بذات نفسها كما وجد الزوج ، فسدرت تهوي في هذا المنحدر دركة دركة . وإذا هي بعد شهر ونحوه بين يدي الفتى في حديقة من الحدائق يتشاكيان ويتناجيان . وإذا الفتاة تحس أنها وجدت ما تفقد وذاقت الراحة والسعادة في تلك الفترات القصيرة التي اعتادت أن تجلس فيها الى الفتى مع كل أسبوع فزادت واستكثرت . وكانت حكيمة يوم أن كانت مُقلة . ولكنها فقدت أسباب الحيطة حين أكثرت . وانتهى الى الاخوة الثلاثة ما تخفي وتستر .

* * *

الفتى نازح إلى المدينة من قرية لا تبعد كثيراً ، هي تلك القرية التي شهدت من أعوام عشرة مقتل شيخ من شيوخها وهو في حقله إلى جانب « قمحه » يرعاه . عرف الفتى الفتاة قبل أن يضمها البيت بقليل . عرفها في الطريق وعرفته ، ورآها من النافذة ورأته . ولكنهما رُزقا قلبين انضما على هوى مع أول لقاء .

وكان الفتى لايزال طالباً في سنيه الأخيرة وبِعِلْمه الكثيرُ عن مقتل أبيه . ولكنه لايعرف عن القاتل إلاّ اسمه . وكان للقاتل لقب يناديه الناس به ، وبه عرفه الفتى . أما الأبناء . أبناء القاتل . فقد حفظوا عن أبيهم اسمه لالقبه . والفتى لم يَلْقَهم قبلُ . ولم يجد من يدلهُ على ماضيهم . فكان هذا كل علمه عنهم .

وكذلك كان علم الاخوة عن هذا الفتى ، عرفوه قرويًّا نازحاً ، ولم يَعنِهم تعرُّف القرية التي نزح عنها . وعرفوه طالباً يوشك أن يُجاز ، وعرفوه عاشقاً لفتاتهم مسيئاً اليهم في عرضهم .

***

والغضب كالنار في الحطب الجزل يشيع في الجسم فيزيد في ضرامه . فالعين لا تبصر إلاّ ما يثير والأذن ليس معها الاّ ما يهيج ، والرأس لايبرم غير الشرّ والقلب لايطرب الاّ بالسير الدامية وأحاديث الانتقام .

كان كل أخ يرى الخطب خطبه والطعنة اليه وجعل كلٌّ يرى في الأمر وسيلته دون أن يكاشف أخويه بما عقد العزم عليه .

***

خرجت الفتاة أمسية وفي نفسها أمر جديد . فهذا القلب الصغير الذي لم يقوَ للحب ساعة حمله . والذي لم يجد أباً يستمع له دون أن يغضب ، أو أمًّا تشير وتنصح ، أو أخاً يعرف أن الهوى مما يُغفر إن لم يَجُرَّ الى ضيعة ، أو زوجاً يمد يده بالصلاح قبل أن يبسطها بالانتقام — خرجت لتضع لتلك الصلة نهاية . فقد أفاقت على صوت يهتف بها من بين جوانحها بأنها زوج . وللزواج حرمته .

وما كان صوتاً ولكنها حملت قلباً كالقلوب لا بد أن يعمر بالحب حيناً ، ولم تجد في ظل الزوج ما يشبع قلبها وإن أشبع جسدها ، فاستجابت في غير شرٍّ لتلك النظرات ثم تلك الجلسات البريئة تملأ بما تجد فيها قلبها . ولم تنسَ أنها زوجة . فجلست الى حبيب قلبها تمتع به قلبها . وما أن ذاقت طعم ما حرمته وتزوَّدت بالقليل منه حتى أنست من نفسها قوَّة ، ومن عقلها رشداً ، فخرجت هذه المرة تودّع الفتى وداعاً لا لقاء بعده ، ولتظفر منه بآخر نظرة ، ولتسأل الله له السلامة والتوفيق . ولو كانت غير زوجة ورُجع اليها في أمره لاختارته ، ولكنها عرفت للقيود حرمتها فرعتها في جلساتها معه وخرجت تقطع حبلها اشفاقاً عليه ، وبرًّا منها بعهودها .

وكان المكان هو المكان الذي اختارته هي والفتى الى جانب ساقية بين المزارع تلتف به أشجار كثيفة .

***

مضت الفتاة تبغي فتاها حيث تواعدا فلم تجده . فعلمت أنها سبقت الموعد بقليل . وكانت الأرض قد لبست ثياب الايل الأسود وخيم السكون وبدت وحشته في نفسها فهمت بأن تنصرف . وما كادت حتى أحست وقع قدم . فعرفت انه لصاحبها فنهضت من مكانها تشرف عليه . وما كاد الفتى يخطو الى حيث تقف حتى وثب اليه فتىً لم يكن غير الأخ الأصغر . فأمَّه بهراوة وما كاد يرفع يده ليجزيه الثانية حتى وجد الى جانبه أخويه عن غير موعد كل يسبق الى الفتى بما ملك . وإذا الفتى جثة . واذ دمه يجري على الأرض قانياً .

وأُلقي الى الأم أن هناك شرًّا ينتظر ابنتها وتيَقَّنَته الأم حين لم تجد ابنتها والإخوة الثلاثة بين يديها فخرجت هلعة صارخة على غير هدى . فوجدت الى جانبها أُمًّا ثانية تندب ابنًا . فالتقى الصوتان الحزينان .

ولكن سرعان ما هدأ أحدهما وأمعن ثانيهما فيما بدأ به .

عرفت أُم الفتاة أن ابنتها بخير اللهمَّ إلاَّ من غشية نقلت من أجلها إلى المستشفى لتسعف . وتيقنت أُم الفتى أن ابنها مضى إلى لا عودة فأعولت ما أسعفها العويل.

* * *

وهناك أبٌ خلّفناه يفرّ وقطعنا عنك حديثه . وقد غلبه الشوق فعاد أدراجه بعد تلك الغيبة الطويلة باحثاً عن أولاده ، فعلم أن الأيام لانت لهم وأنهم فيها على شيء من الرغد . فيقصد إليهم طامعاً في أن يعيش الى جوارهم يوماً أو بعض يوم وكفاه ما عانى تلك الأعوام من البعد عنهم .

ثمَّ هو قد بدا غير ما كان ولم يعُد أحد يعرفه ، فهو آمنٌ الغوائل غير مُلقٍ للأحداث بالاً .

ويشاء القدر أن تكون تلك الأمسية موعد حلوله فينحدر معها الى بيت أولاده بعد أن عرفه . فيجد البيت خاوياً إلاَّ من بعد القُطَّان . ويسمع لهم حديثاً غير مفهوم يفقد معه وعيه وينسيه حذره ويخلعه من حيطته . ويجري الى حيث يجري الناس فيرى أبناءه بين يدي الشرطة ، ويعرفهم بكبيرهم ، فيقذف بنفسه إليهم ويدفعه الشرطة عنهم .

ثمَّ يعرفهُ الشرطة فيجدون فيه ضالة ينشدونها من أمدٍ بعيد . فيسوقونهم جميعاً الى حيث يناقشهم القانون الحساب .

* * *

وهكذا عاد الأب ليذوق مع أولاده الشقاء ثانيةً كما ذاقه أولاً . ولينزل وإياهم بيتاً مشيداً يحيط به الحرّاس من كل جانب، لم يكن غير السجن .

ابراهيم الابياري

الذهب السائل

في الشرق الاوسط

ثروة ينبغي أن يلم بها الشرقيون جميعاً

عند عقد المؤتمر البرلماني الدولي في القاهرة منذ ثلاثة أعوام رأت الحكومة المصرية ان تطلع الضيوف الأجانب على نواحي النهضة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مصر فطبعت طائفة من الكتب تبيّن بأجلى صورة ما حققته مصر من ارتقاء. واستوقف نظرنا منها كتاب كتبه حضرة الشيخ المحترم محمد محمد الوكيل بك عن القطن المصري أجاد في بسط موضوعه وتفسير نواحيه حتى ان أستاذنا الكبير خليل ثابت بك دعا في مقال نشره الى تقرير هذا الكتاب على طلبة المعاهد المصرية باعتباره كتاباً يتعين على الطلاب أن يدرسوه ليلموا بأكبر محصول يدر على مصر من الخيرات ما لا يُستطاع حصْر مداه في ما ترادف من أجيال وفي ما ينتظرنا من أجيال وحقب.

واليوم برز في منطقة الشرق الأوسط عنصر جديد له شأنه المعلّى في اقتصاديات رقعة استراتيجية كبيرة القدر، ونعني به مادة الزيت التي كثيراً ما ينعتونها « بالذهب السائل » إيماء إلى نفاستها وعلوّ قدرها. وكانت لمصر من هذه المادّة حصة كبيرة. فقد تبيّن لشركات البترول التي تنقب في صحراء سينا أن تلك المنطقة عامرة بوفرة من مختزن النفط، وأن الينابيع الجديدة التي كشفت في مناطق عسل والفيران والسدر دلت على إن إمكانيات كشف ينابيع أخرى تكتنفها آمال واسعة ويُعلق عليها رجاء لا حدّ لمداه.

وقد بدأت أنظار العالم بأسره تتطلع إلى منطقة الشرق الأوسط بعد ما انفتحت أراضيها تميط اللثام عن مكنوناتها النفيسة وباتت أنظار القارّة الأوربيّة تتجه الى زيت الشرق الأوسط باعتباره « ملاذها » الوحيد حين تنضب مواردها الأميركية من النفط

الذي يرسل لها بمقتضى مشروع مارشال فاعتباراً من عام ١٩٥١ سيلبي الشرق الأوسط ما يُربي على ٨٠ في المئة من حاجات أوربا البترولية كما أنه سيجيب طلبات بعض الأسواق الأسيوية والأوربية .

* * *

وإذا كان الأستاذ خليل بك قد اقترح أن يدرس الطلاب المصريون مادّة « القطن » في المعاهد الابتدائية والثانوية بغير أن تقصر على طلاب كلية الزراعة، فلنا اليوم أن نقترح تدريس مادة « البترول » لا في المعاهد المصرية وحدها بل فيها وفي جميع معاهد الشرق الأوسط .

وقد عمر الشهر الماضي بأنباء البترول الجديدة ، ذلك أن الحكومة السورية أمضت إتفاقاً مع شركة البترول العربية الأميركية بمقتضاه تمد أنابيب البترول من الظهران عبر سوريا إلى ساحل لبنان فكان هذا العقد فاتحة عهد جديد تجتازه سوريا لما يدره عليها المشروع من دولارات سخيَّة عدا الامتيازات الأخرى التي تجيء في ركاب هذا العقد من تشغيل الأيدي العاملة العربية وشراء مقدار من البترول الخام سنويًّا (قدره ٢٠٠ ألف طن) بقيمة تكاليفه والظفر بحصيلة عن كل طن من البترول يصدر وما الى ذلك .

كذلك فوجيء متتبعو الأنباء في اليومين الأخيرين بما قررته شركة كبيرة للبترول تنقب في مصر — هي شركة ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي — فقد أذاعت الشركة أنها قررت وقف أعمالها وقتيًّا وأنذرت عدداً كبيراً من موظفيها المصريين بالاستغناء عنهم وحجة الشركة في اتخاذ هذا القرار إنها ترتاب في القوانين المصرية المزمع إصدارها لتنظيم شؤون المناجم والمحاجر .

* * *

والواقع إن هذا الإجراء ينبغي أن يوجه نظر الحكومة المصرية إلى ضرورة سرعة إصدار هذا القانون لأن الإبطاء فيه يجعل الشركات في قلق ولأنه متى صدر دلّ المشتغلين بصناعة البترول — والصناعات المعدنية الأخرى — على الحدود التي يتعين عليهم فيها العمل

ومما يذكر في هذا الصدد أن المؤتمر الهندسي الذي عقد في القاهرة في العام الماضي قرر ضمن ما قرره ضرورة المبادرة بإصدار هذا التشريع لما له من تأثير كبير في الاقتصاد القومي .

* * *

وهناك عنصر ينبغي أن يذاع أمره بصدد صناعة التنقيب عن البترول فكثيراً ما يقولون : فلتتول الحكومة أمر استنباط الذهب السائل ولتحرم الشركات من هذا الامتياز .

والذين يعرفون حقائق الأمور يدركون أن هذا القول وإن كان بادي الوجاهة، يفتقر الى ما يعززه من الناحية العملية . ذلك لأن الحكومات — مهما اتسعت مواردها — لا تستطيع أن تتكفل بنفقات الكشف والتنقيب عن البترول عدا أن الأعمال الحكومية مطبوعة دائماً بطابع البطء والروتين ، ولكن الشركات قادرة على مواجهة هذه النفقات لأنها تدار على قاعدة عالمية فتخسر في التنقيب في منطقة في الشرق مثلاً خمسة ملايين جنيه وتكسب من ينابيع أخرى في الغرب مثلاً عشرين مليوناً فيكون لها بعد هذه الجولات ربح يمكنها من المضي في عملها .

أضف إلى ذلك ما تكتسبه تلك المنشآت من خبرة واسعة في التنقيب والاستنباط في جميع ربوع العالم تمكنها من إجادة النهوض بعملها بما لا يتأتى للافراد والحكومات .

والرأي الصائب هو أن لا تضن الحكومات بمواردها إلاَّ إذا استأثرت بأمر استغلالها ، بل إن تتيح للقادرين أن يغزوا هذا الميدان ولكنها تشترط عليهم شروطاً تمكنها من أن تظفر منهم بأكبر نفع فتشغل الأيدي المحلية وتتيح للاموال المحلية أن تستثمر في أسهمها وتكون مدد امتيازها قصيرة بحيث تؤول مصانعها ومعاملها الى الحكومة قبل أن تنضب الموارد ، وقبل أن تستهلك المعدات. وكذلك يشترط أن يتدرب المصريون في هذه المنشآت على جميع الأعمال الفنية والادارية ليكونوا بها على المام تام .

وفي ضوء هذه الاعتبارات ينبغي النظر إلى قضية صناعة البترول في الشرق الأوسط .

وديع فلسطين

كيف فهمت

القضاء والقدر

موضوع لا يزال مشكلاً معقداً ، ولكنني أكلف كثيراً بكل مشكل معقد ، كما يكلف الرياضي بعويصات المسائل الرياضية . ولقد سئم الناس الحديث في المسائل الدينية لأن ولاة أمور الدين أسأموهم حين أفهموهم أنّ الدين ومسائله أمور معقّدة، وأسرار مغلقة، لا يزداد الإنسان منها قرباً وفهماً إلاّ ازداد عنها بعداً وضلالاً ، وجهدوا فيه وجاهدوا فلم يفتحوا فيه مسألة إلاّ أغلقوها ، وأخيراً رجعوا حين فشلوا ورضوا من الغنيمة بالأياب في آفاقه التي طوفوا يقولون كالعجائز اللهمّ ديناً كدين العجائز . . . فلا عجب ان أصبح الناس يزهدون الأديان ومسائلها زهدهم في الخرافات والأساطير، وزهدهم في السفهاء الذين يعبثون في الحياة ويزجون أوقاتهم ازجاء ، ويلقونها القاء . . . ولكن هل رأيت أنّ الانسان يتوجه في حياته ويصدر في كل تصرفاته عن الصورة الخاصة في نفسه التي يتصوّر بها الحياة، ويتكيف بها عقله أو اعتقاده، حتى كان الفرق بين تصوُّر الأفراد والشعوب لمسائل الحياة الذي يكيف الحياة هو كالفرق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والظلام والنور ، والتقدُّم والتأخر ، والغنى والفقر ، فأمّا أن تراه انساناً حيّاً ينبض بالحياة لأنه فهم الحياة، أو ميتاً شبحاً قد لفظته الحياة لأنه لم يفهم الحياة .

وبعد: فالناس فريقان ، فريقٌ يؤمن بوجود رابط للطبيعة وما تجري فيه من سنن محكمة منظمة ، وفريق يرى أن الطبيعة هي رابطة نفسها بما تجري فيه من سنن محكمة منظمة ، وأن ضرورة الحياة هي التي أوجدت هذه الروابط المحكمة المنظمة ، ونحن لا نبحث الآن في أي الرأيين أصح فلنا في ذلك مقال آخر ، ولكن بحثنا فيه الآن من ناحية تعلقه بالقضاء والقدر .

وأما الفريق الثاني فأمره مفهوم من ناحية اعتقاده بالقضاء والقدر — فحيث قد انتفى عنده وجود رابط لكل شيء انتفى اعتقاده بأن ما يحدث في الطبيعة يجري على علم بالرابط المنظم لها، وانما هي عنده مصادفات منظمة . . . وهذا الفريق نفسه الملحد بالواحد الرابط ينقسم الى فريقين : فريقاً يؤمن بأن الحياة مصادفات عمياء تعطي بغير حساب، وتمنع بغير حساب، وترفع من تشاء بغير حساب ، وتخفض من تشاء بغير حساب، ويسمونها الحظوظ

والأقسام وهم أكثر الناس، والفريق الآخر يرى أن الطبيعة نفسها منظمة وعطاؤها منظم أيضاً، ورأوا أن كلَّ الحظوظ الحسنة فيها قد دفع أصحابها من أجلها ثمناً غالياً يساوي أو أقلّ ما يساوي ما أخذوه منها . . . فهم لذلك يعملون لأنهم يعلمون أنهم لن يبخسوا شيئاً فلم يخدعوا أنفسهم بالأماني وهم قعود . وأما أولئك فهم لا يزالون مخدوعين بأن الحظوظ الحسنة ستقبل عليهم يوماً، ولو لم يقدموا لها شيئاً . ومن عجب أن يحلو للإنسان أن يغالط نفسه اذا عجز عن أن يقدم للحياة شيئاً إذا حرمته الحياة شيئاً .

وأمّا الفريق الأوّل وهم المؤمنون بالواحد الرابط لكل شيء فينقسمون أيضاً إلى فريقين : فريقاً يفهم في الواحد الرابط لكل شيء فهماً حسناً وهم قليل وهم المؤمنون حقاً يعتقدون أنَّ هذا الوجود المنظَّم المحكم لا بدَّ أن يكون الذي ربطه منظَّماً محكماً أيضاً. ومن أجل ذلك فهم يعتقدون أنَّ الحياة منظَّمة كذلك وأنَّ ما يقدمونه إليها يساوي ما يأخذونه منها تماماً عدلاً، فلا يطمعون في غير مطمع، وان أنقصتهم الحياة شيئاً علموا أن الله لم يأخذ منهم شيئاً جوراً. وإنما يرجعون الى أنفسهم كما يرجع المحاسب الى نفسه إذا أخطأ في حسابه. يقولون « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون» وإنهم لا يصابون إلاَّ بما قدَّمت أيديهم فلا يلومون إلاَّ أنفسهم، فأقسم الله بهم مباهياً معظِّماً معزِّزاً كما أقسم بيوم القيامة العظيم حين يقول « لا أُقسم بيوم القيامة ولا أُقسم بالنفس اللوَّامة» . وفريقاً لم يخلصوا الإيمان ولم يفهموه وهم كثير — يفهمون أنَّ الألوهية حين تعطي قوماً لا يستحقون الأعطاء في نظرهم وتمنع قوماً يستحقون الاعطاء في نظرهم — قالوا لا تشك وهم يشكون . وقالوا هذا سر وما نحن فيه باحثون إلاَّ واقفون عنده مؤدبون

ملك الملوك اذا وهب   لا تسألنَّ عن السبب
فالله يعطي من يشاء   فقف على حدِّ الأدب

هؤلاء هم الذين لا يقدّمون للحياة شيئاً ولا يحسنون فيها صنعاً — هم الذين يرون الحياة كالموت والحركة كالسكون .

جرى قلم القضاء بما يكون   فسيَّان التحرك والسكون

مع أنَّ القضاء فيما جرى به قدَّر أنَّ الحركة ليست كالسكون، وأنَّ القاعدين ليسوا كالمجاهدين، « وفضَّل اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً » فهل تستوي الحياة والموت والحركة والسكون ؟

وأخيراً أنت عند ظنك بالحياة — ان رأيتها خيراً وعدلاً فأنت نفسك بخير وعدل، وان رأيتها شرًّا وظلماً، فأنت نفسك شرٌّ وظلم .

عبد الحميد على الغرابلي

باب الأخبار العلمية

نجاح العلماء في عزل الفيروس
الذي يسبب شلل الأطفال

نجح علماء الولايات المتحدة بعد تجارب استغرقت عدة سنوات في عزل فيروس شلل الأطفال والحصول عليه في صورة تكاد تكون نقية أي بمفرده تقريباً. وقال الدكتور يرسلز ستولبرج من علماء البكتريولوجيا في جامعة مينيسوتا في مقال له في صحيفة مينابوليس تريبيون أنه أمكن عزل الفيروس نقياً نقاء يكاد يبلغ ٩٩ر٥ في المائة وكانت درجة النقاء التي امكن الوصول إليها في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا لا تزيد على ٨٠ في المائة أو ٨٥ في المائة.

وقد أمكن الحصول على فيروس شلل الأطفال الذي يصيب الانسان بعد ما تمكن علماء مينيسوتا من الحصول على فيروس الشلل الذي يصيب الحيوانات الصغيرة بمدة أربعة أشهر.

والفيروس الذي أمكن لعلماء مينيسوتا الحصول عليه ما زال قوياً حتى انه إذا أضعف الف مرة فانه يسبب الشلل للقردة، وهذا الفيروس نوع من أنواع فيروس شلل الأطفال الذي أصاب مينابوليس في شكل وباء في عام ١٩٤٦.

أما الهدف الذي يرمي العلماء اليه من الحصول على فيروس هذا المرض فهو اجراء التجارب على الدم للحصول على مصل يقي من الاصابة بشلل الأطفال أو للكشف عن الفيروس في الدم. وقد بدأ البحث بالفعل للوصول الى ذلك في جامعة مينيسوتا وستكون الخطوة القادمة اجراء التجارب للوصول الى علاج لهذا المرض، وتقوم المؤسسة الوطنية لشلل الأطفال في الولايات المتحدة بالانفاق على هذه البحوث.

دواء جديد لعلاج الكولرا

استطاع الدكتور هاري سينيكا أستاذ البحوث في كلية الأطباء والجراحين بجامعة كولومبيا، والدكتور ادوارد هندرسون مدير قسم البحوث الطبية في شركة شيرنج بمدينة بلومفيلد (ولاية نيوجرسي) اكتشاف دواء جديد لعلاج الكوليرا يسمى

« بثاليلسولفاسيتميد Pthalylsulfacetmied وقيل إن هذا الدواء كان له أثر فعال في علاج مرض وباء الكوليرا الذي أصاب مصر أخيراً

وقد سافر الدكتور سينيكا الى مصر بطريق الجو ومعه كمية من هذا الدواء عولج به خمسمائة مريض . وتبين من سجلات ٤٣ مريضاً ان واحداً فقط قد توفي . وتدل احصائية الحكومة المصرية على ان نسبة الوفيات بلغت ٢ ر ٤٩ في المائة من بين ٧٨١ ر ٢٠ مصاباً .

ومن خصائص هذا الدواء انه يقتل البكتريا ، ويتسرب الى جدران الامعاء ولا يصل الى الدم . ومن خصائصه أيضاً انه يتركز في المناطق المصابة بالامعاء ، ولكنه لا يحدث أثراً سيئاً على الجهاز العام للانسان وقد تبين للباحثين ان هذا الدواء يصلح لمعالجة الدوسنتاريا والحمى المعوية والاسهال وبعض الامراض الاخرى .

ويعمل الآن الدكتور سينيكا في جامعة كولومبيا على سبيل الاعارة من شركة شيرنج وقد تخرج في كلية الطب بجامعة بيروت الامريكية . أما الدكتور هندرسون فقد درس في جامعة جلاسجو وعمل في عدد من الجامعات الأمريكية .

فرن شمسي

أتم الدكتور ترومب فوس والدكتور هنري بلانشيني الفرنسيين عمل فرن شمسي ووضعه للعمل في مرصد ميدون بفرنسا .. وقلب هذا الفرن ما هو إلاّ مرآة مقعرة يبلغ قطرها حوالي ستة أقدام ونصف وبعدها البؤري حوالي ثلاثة وثلاثين بوصة ونصف .

***

وهذه المرآة محمولة على مصباح كشاف مما كان يستخدمه الجيش . ومن الطبيعي أن المرآة تحرك ميكانيكيًّا تبعاً لحركة الشمس لتكون دائماً في أحسن حال لاستقبال الأشعة .

وإن تركيز هذه المرآة للاشعة يجعل من الممكن الحصول على درجة حرارة تبلغ خمسة آلاف ومائتين درجة مطلقة ...

***

وبهذا الفرن الشمسي أمكن صهر بعضاً من العناصر النادرة وحُوِّل الجرافيت من مادة صلبة إلى غاز في درجة حرارة ٣٥٠٠ درجة مطلقة .

كما أن قطعة من الحديد تزن حوالي أوقية حين عرضت لحرارة هذا الفرن الهائل انصهر جزء منها إلى غاز في عشرة ثواني .. !!

مكتبة المقتطف

١ – اصطلاحات عربية لفنّ التصوير

ليس وضع الاصطلاحات العربية بالأمر الهيّن ، فإنه ليحتاج الى ذوق رفيع وبصر بعيد وإدراك للشيء المراد تسميته ومعرفة دقيقة بكل دقائقه ليطابق الاسمُ المسمّى من جميع وجوهه . كما يحتاج الى اطّلاع واسع على أصول الكلمة واشتقاقها والمقابلة بينها وبين ما وُضع مثيلاً لها في لغة أخرى ليتحسس الفروق من حيث صفة الشيء المسمّى وتأتي بعد هذه الصعوبة في هذا الأمر والمشقة في ذلك الاختيار مشقة أكثر من هذه وأكبر ، هي تقدير اللفظ الصالح للاستعمال ومعرفة السائغ منه للذوق ، القابل للذيوع . فكم من ألفاظ رقدت حيث أُريدَ لها النهوض لأن الأذواق لم تستسغها ، فلم تتقبلها الخاصة برضى واستحسان ، ولم تطقها العامة بيسر وسهولة .

لذلك كان حسن صنيع من الصديق البحاثة الدكتور بشر فارس — وهو أديب له ذوق فنّان وشاعر له حسّ المبتدع — إقدامه على تذليل صعوبات كثيرة في نواحٍ مختلفة من الفنون يصوغ فيها اصطلاحات هي بحاجة اليها صياغة تضمن لها الحياة والاستمرار . فوُفّق الى مدى بعيد فيما وضع أو اختار .

وآخر ما أنتجه في هذا الباب اصطلاحات في فن التصوير بلغت خمساً ومائة كلمة هي ثمرة بحثه فيه دعاه الى وضعها كتابه الذي ألّفه بالفرنسية وعنوانه المعرَّب « منمنمة دينية تمثّل الرسول من أسلوب التصوير البغدادي » نشره المجمع العلمي المصري . وكانت هذه

الاصطلاحات مبحثاً ألقاه في جلسة علنية بهذا المجمع في شهر مايو من العام الماضي .

وقد اتجه في وضع هذه الاصطلاحات الوجهة السليمة التي تضمن الحياة لها ، فهو يأخذ من اللغة السائرة بين الناس في مصر وغيرها اللفظ المخصص بعد التحرّي فلا يبعد به عن إدراك العامة ولا ينزل به عن أصوله في اللغة الفصحى ، أو يستخرج الاصطلاح مما استعمله العرب والمستعربون في العصور السابقة ، أو يستنبطه من اصطلاحات عريقة لفنون أخرى . وهو إذ ينقل لفظاً فصيحاً يعمل جاهداً على التقريب بينه وبين ما يجري على ألسنة الناس حتى لا يشقّ عليهم أو يحسّوا فيه بُعداً عما ألفوا . وهذه وسيلة فعّالة قائمة على تبصّر ووعي . وقد وضع لهذه الاصطلاحات مَسْرداً فرنسيًّا عربيًّا . ثم شرح بعد ذلك هذه الاصطلاحات مستشهداً لها بنصوص من كتب اللغة والأدب .

***

ونحن في هذه الآونة في حاجة ملحّة الى كثير من هذه الاصطلاحات في شتى فنون المعرفة توضع في إطارٍ من المعرفة العلمية والإلمام اللغوي والذوق الأدبي . ولعلّ الدكتور بشر فارس يتابع جهوده في هذا الحقل ، فهو أكثر العاملين فيه دأباً وجلداً ونشاطاً وحيوية .

(يباع الكتاب في مكتبة النهضة ومكتبة نشر الكتاب الفرنسي في القاهرة)

٢ — الأمثال العامية

للمغفور له العلاّمة المحقق احمد تيمور باشا أيادٍ بيض على المكتبة العربية بما جمع لها من كنوز نفيسة وما أخرج من آثار قلمية قيّمة .

ولقد كان وفاء لجهد هذا العالم أن تنهض اللجنة التي تألفت من علماء أجلاء لنشر المؤلفات التيمورية برياسة الأستاذ الكبير خليل بك ثابت فبدأت بنشر كتابيه « ضبط الأعلام » و « لعب العرب » ثم نشرت له أخيراً كتابه الضخم الذي ضمّ فيه ٢٦٨١ مثلاً من الأمثال العامية التي تناقلها العامة مشروحة مقرّبة كلماتها الى أصولها في العربية الفصحى فهو بمثابة تقريب بين اللهجتين وأساس للباحثين في اللغة لمعرفة أصول الكلمات وأخذ ما يستطاع أخذه منها وإضافته الى الفصيح . ولم يقصر هذا الكتاب على جمع الأمثال فهو

يحقق فيه أصل المثل وسبب قوله وأصول كلماته وما يقابل بعضها من مثل فصيح مستشهداً لذلك بالكثير من الشعر .

وليس هذا العمل بالهيِّن فهو مجهود ضخم يتضح للمطلع عليه ما بذل فيه المرحوم تيمور باشا من تحقيق ليبلغ به الغاية التي كان يرمي إليها في تحقيقاته العلمية .

وعسى أن تعمل اللجنة — مشكورة على ما قدّمت — على إخراج آثار الفقيد جميعها بهذه الروح الطيبة لتظفر المكتبة العربية بآثار هذا العالم الجليل الذي كان يعمل في صمت متفانياً في غايةٍ هي أشرف الغايات .

ويقع كتاب « الأمثال العامية » في ٤٤٣ صفحة ويطلب من حضرة سكرتير لجنة نشر المؤلفات التيمورية الأستاذ احمد ربيع المصري بدار اللجنة بميدان المبدولي بعابدين بجوار المتحف الصحي بالقاهرة .

٣ — ذخائر العرب

لا شكّ في أن « دار المعارف » هي أكبر دار للنشر في الشرق العربي ، ولا شكّ في أن ما أفادته منها الثقافةُ العربية في مدى ستين عاماً جديرٌ بالتقدير والثناء ، فقد احتضنت تلك الثقافةَ عاملة على رفع مستوى الكتاب العربي ، ناظرة في طريقها الى غاية أسمى من الكسب وأرفع من الأجر . لذلك استطاعت أن تكسب الى جانب هذه الثروة العلمية والأدبية التي حفل بها تاريخها الطويل ثروةً لا تقدَّر بمال ، هي الثقة بما تنشر والاطمئنان الى ما تذيع والايمان بالرسالة التي تؤدّيها ، وهو فخرٌ لها ، وأي فخر !

***

ولقد وضع صاحب هذه الدار الأستاذ شفيق متري ومديرها الأستاذ يوسف مشاقة برنامجاً واسع النشاط بعيد المدى لتحقيق الهدف الذي تتجه إليه هذه الدار في خدمة الثقافة يسيران عليه في عزم وقوّة وإيمان وثقة لا يضنّان فيه بشيء ، فهما بعد أن قاما بسدّ النقص في جانب المعرفة بإصدار سلسلة « إقرأ » بمعاونة خيرة الكتاب والمفكرين ،

وسدّ الحاجة الى مجلة تسجل النهضة الفكرية بإخراج مجلة « الكتاب » بإشراف كاتب ضليع وشاعر ممتاز وناقد حصيف ، اتّجها ناحية الفكر العربي القديم يحييان آثاره إحياء فيه كل معاني القوّة والخلود الى جانب ما ينشران من آثار الفكر الحديث ، فعملا على إخراج مجموعات من التراث العربي تحت اسم « ذخائر العرب » فأصدرا منها كتابين في أروع إخراج فني ليتفق مع القيمة الأدبية الرفيعة لهذه الآثار .

وأول هذين الكتابين ، القسم الأول من « مجالس ثعلب » لإمام اللغة أبي العباس احمد بن يحيي ثعلب ، بتحقيق الأستاذ المحقق عبد السلام هارون المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول وهو يقع في أربعمائة صفحة من القطع الكبير .

والثاني كتاب « جمهرة أنساب العرب » لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الاندلسي قام بتحقيقه والتعليق عليه الأستاذ ا . ليفي بروفنسال أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس وهو يقع فيما يزيد عن ٥٣٠ صفحة من القطع الكبير أيضاً .

وقيمة الكتابين العلمية والأدبية جديرة بأن تجعل لهما مكان الصدارة من هذه السلسلة النفيسة التي أقدمت « دار المعارف » على إبرازها من تلك الكنوز الفنية مضحية في سبيل هذه الغاية الكريمة بالجهد والمال .

ولقد قصرتُ كلمتي هذه على تحية الذخائر عند ظهورها لأتناول فيما بعد عرض هذين الكتابين .

٤ — ديوان الهذليين

أخرجت دار الكتب المصرية القسم الثاني من ديوان الهذليين بعد أن صدر القسم الأول منه في سنة ١٩٤٥ ، وقد تضمن شعر : المتنخل ، وعبد مناف بن ربْع ، وصخر الغيّ ، وحبيب الأعلم ، وأبي كبير ، وأبي خراش ، وأمية بن أبي عائذ ، وأسامة بن الحارث وساعدة بن جؤية ، وصخر الغي وأبي المثلَّم ، وأبي العيال ، وبدر بن عامر وأبي العيال .

وفي إخراج هذا الأثر من شعر الهذليين خدمة للادب العربي القديم في ناحية من

نواحيه ، وإظهار لتراث بعضه مغمور وبعضه مشتت في بطون الكتب لم يظفر بجامع يلمه وينشره على الناس نشراً صحيحاً حتى أدّى القسم الأدبي بالدار هذا الواجب ، فقام المرحوم الشيخ احمد الزين بتحقيق القسم الأول ثم انتقل الى رحمة ربه وهو يعمل في القسم الثاني منه فأتمّ العمل أخيراً صديقنا الأستاذ محمود أبو الوفا .

ولقد كان في رأينا أن يوفى الكتاب حقه من التحقيق بذكر ترجمات وافية للشعراء الذين نشرت أشعارهم فلا يكتفي بذكر ترجمة الشاعرين أمية بن أبي عائذ وأبي العيال ترجمة قصيرة. ولعلّ ذلك لايفوت الدار عند الانتهاء من طبع القسم الثالث فيذكر كل ذلك في ذيله

على أن صدور القسم الثاني من هذا الكتاب بعد الفترة الطويلة من الزمن بينه وبين صدور القسم الأول لأمرٌ تشكر عليه الدار في شخص مديرها الجديد ، لأن البطء الذي لازم آثارها الأولى كان مبعثاً للأسف . ولكني أعلم أن الأستاذ الجليل أمين مرسي قنديل بك آخذ بسبيل النهوض بالدار الى المستوى الذي يجب أن تكون فيه هذه الدار جامعة عامة تؤدي رسالتها الثقافية على غير نطاق محدود ، معنيٌّ بأن تساير النهضة الحديثة وأن تنشر على الناس ما لا تستطيع غيرها أداءه ، وهذا مضماره فهو في طليعة أساتذة الجيل في التربية والتعليم . وحبذا لو يسّرت له السبل المادية لتحقيق ما يجب تحقيقه من رفع شأن هذه الدار وعدم قصرها على خزن الكتب ومطالعتها وإعارتها فحسب .

***

وبهذه المناسبة نرجو – مؤملين تحقيق هذا الرجاء قريباً – ان يكون حرص سعادة قنديل بك الذي يبدو الآن فيما تعمل الدار جاهدة على إخراجه من الآثار الأدبية شاملاً لما نفد من مطبوعات الدار فيعمل على إعادة طبعها ليتيسر للناس الحصول عليها ومتابعة مجموعاتها كاملة فلا يقف نفادها عائقاً في سبيل الحصول على هذه المجموعات النفيسة وأن تستطيع الدار في عهده وبرعايته وهمته أن تنتهي مما طال عليه الأمد من كتبها التي وقف صدورها أو تباطأ .

حسن كامل الصيرفي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

١٤٥ طوفان القدم : صراع بين اللاهوت والعلم : اسماعيل مظهر

١٥٣ نظرات في النفس والحياة : ع . ش

١٦٣ آراء في العظماء والعظمة : مبارك ابراهيم

١٧٣ الكيمياء والطب : جمال الدين محمد موسى

١٨١ بين مصر والأندلس : محمد رجب البيلي

١٩٢ حياتي (قصيدة) : عبد السلام رستم

١٩٤ أنفس ضائعة : محمد مفيد الشوباشي

٢٠٥ الشعر المعاصر : علي الراعي

٢١٤ الحرب بين النباتات : عز الدين رشاد

٢١٩ عودة الأب (قصة) : ابراهيم الابياري

١٢٨ الذهب السائل : وديع فلسطين

٢٣١ كيف فهمت القضاء والقدر : عبد الحميد علي الغرابلي

٢٣٣ أخبار علمية نجاح العلماء في عزل الفيروس . دواء جديد لعلاج الكوليرا . فرن شمسي .

٢٣٥ مكتبة المقتطف * اصطلاحات عربية لفن التدوير . الامثال العامية . ذخائر العرب . ديوان الهذليين : حسن كامل الصيرفي

لحق المقتطف

١—٣٦ تقرير خاص بطريقة تأليف المعجم التاريخي الكبير للغة العربية وضعه الأستاذ ا . فيشر عضو المجمع